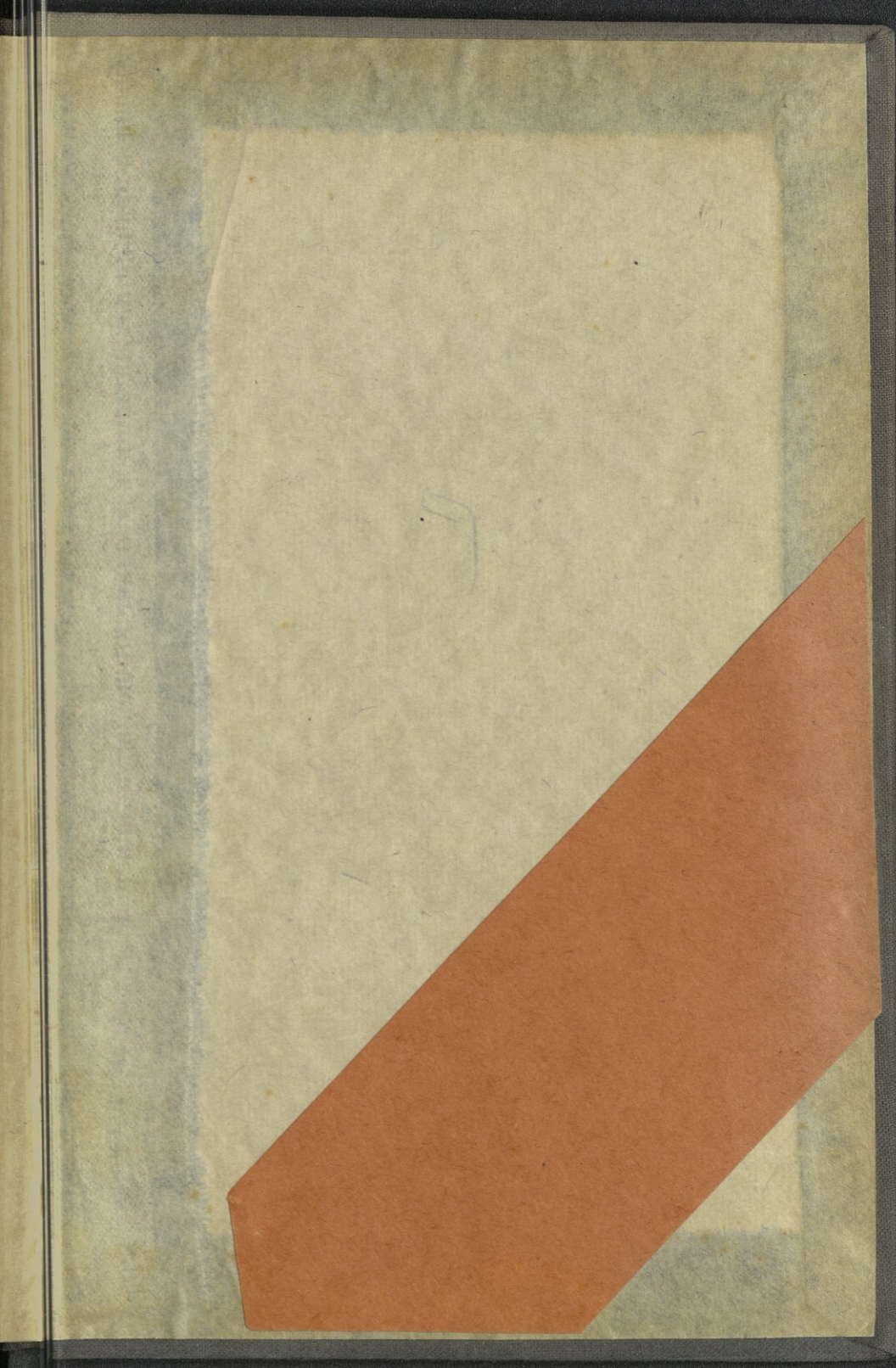
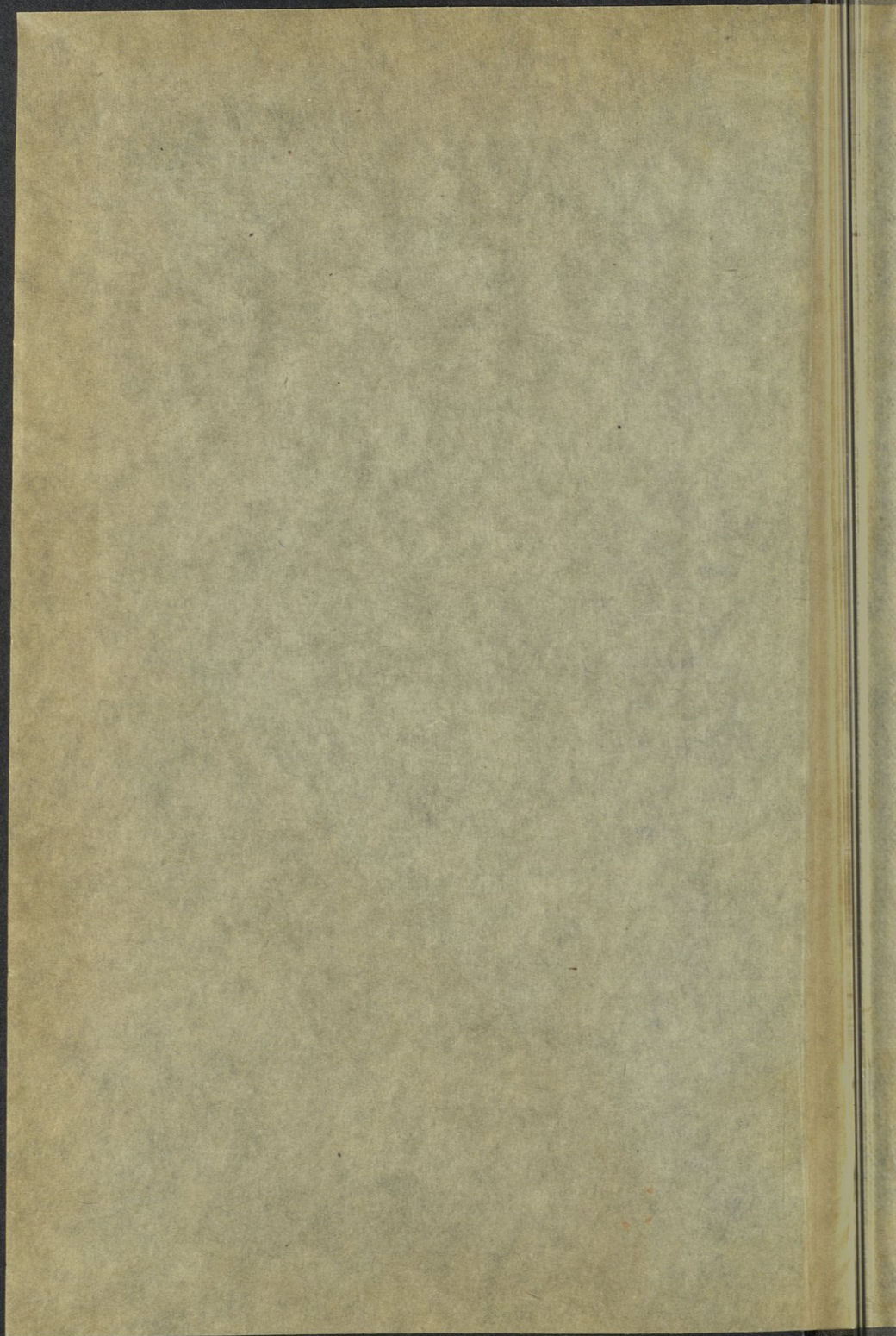
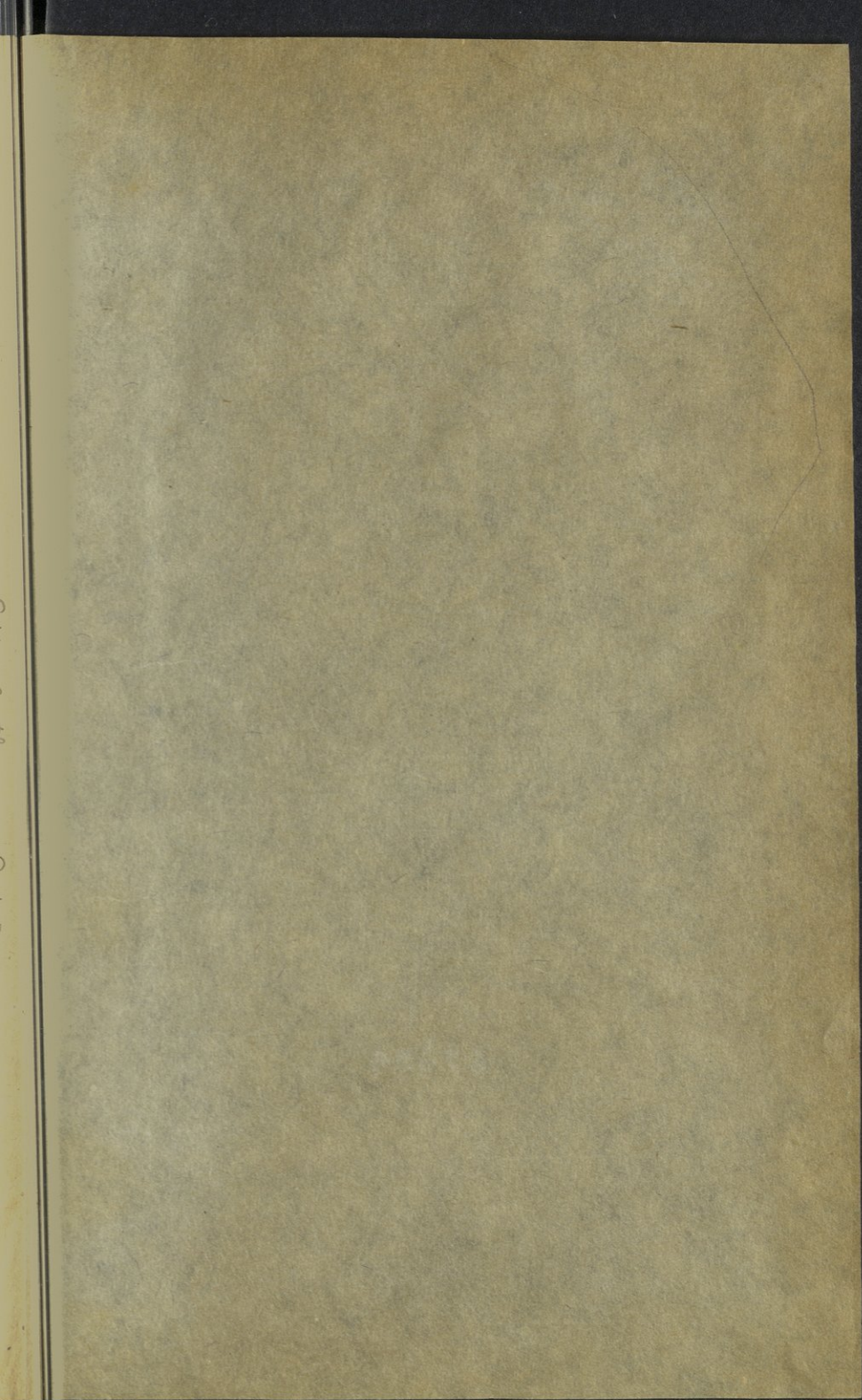








من مكتبة
الجامعة
١٩٤٧

892.73
Sh53dA
C.2

توفيق حميد الشيرتوني

892.78
Sh562dA
C.2

فروع الوفاء

بين الاسداء والدماء

رواية

تجري حوادثها خلال الحرب العالمية الاخيرة

67694

١٩٤٧

مطابع صادر ريجاني ، بيروت ، لبنان - تلفون ٦٨ - ٦٢

Gift. Author. Cat. Mar. 1948



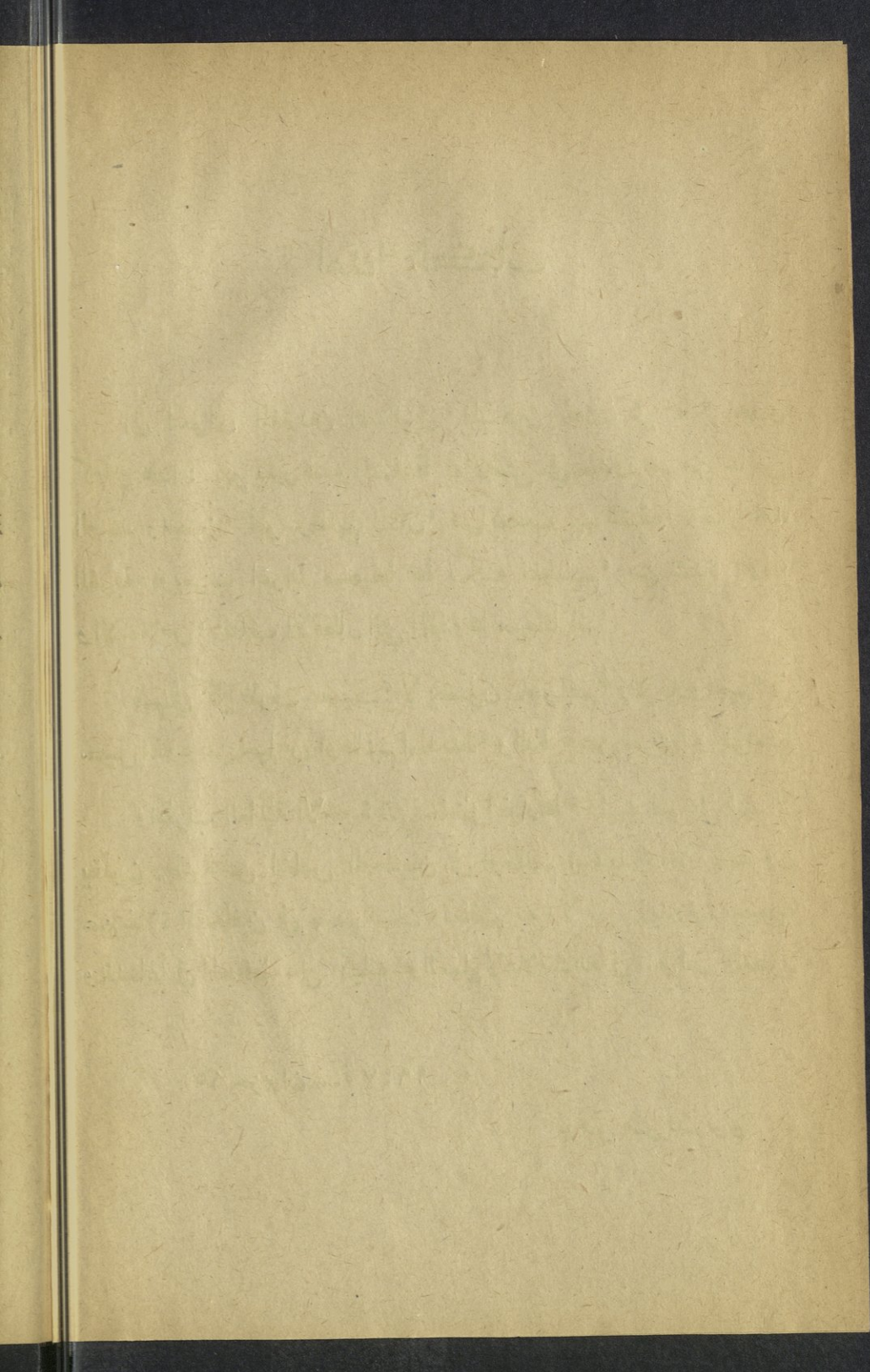
اهداء الكتاب

الى اخواني المغتربين اللبنانيين، المستثنين تحت كل سما، اهدي
كتابي هذا : فهو يعبر تعبيراً صادقاً عما يجيش في صدورهم من خالص
الوجد والحنين، نحو وطنهم لبنان، مهبا بعدت بهم الشقة، وطال امد
الغربة. ويعرب اعراباً صحيحاً عما تكنه نفوسهم، من شدة الوفاء
والاخلاص، لمختلف الاقطار التي اتخذوها موطناً لهم

فهم في كل ظرف عصيب، لا يرضون باموالهم، ولا بارواحهم، في
سبيل الذود عن حياض اوطانهم الجديدة، والدفاع عن حريتها وكرامتها
والحرب العالمية الاخيرة التي خاضوا غمارها، تشهد لهم على انهم لا
يقلّون وطنية عن اخلاص الوطنيين في اوطانهم الجديدة. ولا يقصرون
عن غلاة المتخلفين في حبه للبنان وتعلقهم به. لا بل يزيدونهم حيوية
واندفاعاً في المحافظة على كيانه، والعمل لاعلاء شأنه في اطراف المعمور

١٥ حزيران سنة ١٩٤٧

توفيق حسن السرنوبي



الوداع

كانت في مكتب زوجها تتصفح جرائد الصباح، وهو مكبٌ على
تجبير مذكراته عن الحرب، عندما طرق بابها فقامت تفتحه، فرأت على
رتاجه، بعض رفيقاتها في الدراسة، جئن لتهنئتها بزفافها الميمون، وبسلامة
رجوعها من ميادين الحرب .

فاستقبلتهن بكل ترحاب في ردهتها الخاصة . وجاء زوجها على
الاثر وحياهن تحية رقيقة، وعاد الى عمله . ثم اخذن يسألنها عما جرى لها
في اوروبا، وما الذي اهاب بها وهي وحيدة ابويها وربيبه الترف والدلال
للتطوع في مبرة الصليب الاحمر، متحملة شظف العيش، وافدح المخاطر،
في ساحات القتال .

فشرعت تعرض قصتها عليهن راوية بأسهاب ما حداها على التطوع،
وما جرى لها من الحوادث والمفاجآت خلال الحرب . قالت :

في صبيحة رأس السنة عام ١٩٤١ جاءني خطيبي اميل لا بساً بزة
عسكرية يزهو بها، ويبدو فيها كأنه زاد جمالا على جماله، وابه على ابائه .
وكان يحمل في يده اليمنى خاتماً ماسياً ومحسباً مرصعاً وضعها في
اصبعي قائلاً : هذه الهدية التي اقدمها لك، في هذا العيد، هي رمز

لارتباط قلوبنا واتحاد جسدنا ما دمنا في قيد الحياة ... ثم أردف وغداً
تبحر فرقتي الى اوربا للمساهمة في هذه الحرب دفاعاً عن الوطن، ولم
يبق لي في موتريال سوى هذا اليوم، اود ان اصرفه بينك وبين ابوتي
واخوتي الصغيرين . فأتغدى معك بين رهطك، وتتعشين معي بين اهلي .
فدخلت تواء غرفة امي اعلمها بمجيئه وبكل ما اسره الي، فارتدت
ثيابها وجاءت تستقبله بعطف متمنية له ان تكلا العناية الالهية من
كل شر وتعصده للقيام بخدمة وطنه على اكل وجه .

ثم طلبت منا ان نرافقها الى الكنيسة، حيث كان ابي قد سبقها اليها،
لنشترك معاً بالصلاة في هذا العيد، مبتلين اليه تعالى بان ينصر كندا
وحلفاءها الميامين على اعداء الحق والديموقراطية .

وهناك في بيت الله، وفي قدس اقداسه تعاهدت واميل على الوفاء
في الحب، وعلى الاقتران في نهاية هذه الحرب .
عدنا جميعنا الى البيت، فالفينا فيه بعض الاقرباء الذين جاؤوا لتهنئتنا
في العيد .

فجلس والداي معهم في قاعة الاستقبال . اما انا وخطيبي فقد انفردنا في
المكتب الى ميعاد الغداء .

ساعتان صرفتها بقربه في تلك الغرفة، مرّتا مرور البرق، غير ان
وقعها قد انطبع في مخيلتي انطباعاً وغمر قلبي غمراً، مع اننا لم نتجاذب
حديثاً يشف عن معنى يستحق الترداد، بل كان الفاظاً متقطعة، لا انسياق
بينها، لكنها في جملتها تنم على تقديس الحب وتأليه الوفاء .

غير ان الدموع التي انهمرت عفواً على خدينا خلال ذلك الاجتماع ،
كانت افصح منا تعبيراً عن وهج حبنا ووحشة فراقنا
وفي آبان الغداء ، قال لي ابي عندما رأيته حزينة شديدة التأثر :
هنيئاً لك بنيتي بخطيبك ، فهو شاب مثقف مقدم ، ووطني جريء
صادق ، وبلادنا اليوم احوج منك الى ساعديه المفتولين ، وقلبه الكبير ،
وروحه الوثابة .

وغداً عندما يعود من الحرب تتكلمين عليه ، بعد ان يفسح لك
في جهاده الشريف مجالا واسعا للاعتزاز به والافتخار ببطولته
فوقع كلام والدي من نفسي موقعا مرضيا ، فتصأب قلبي واشتد
عزمي : فقلت لخطيبي : اذهب بامان الله ، وكن رجلاً كما اريدك ،
قوي الشكيمة في الحرب ، مليئاً نداء الوطن في الملمات . وكن واثقاً
بمحبتتي ووفائي الى ان يقبضني الله اليه او يجمعني بك مكلاً بالكيل الغار .
فانفجرت اسارير خطيبي واجابني : لقد زادني كلامك شجاعة ،
وملأني عزماً ، وغمرني نشوة . فانا ذاهب الى الحرب مزوداً منك بافخر
زاد تقدمه فتاة الى حبيبها في مثل هذه الظروف . فهو زاد يحيي نفسي ،
ويبعث فيها روح الاقدام والتفاني في سبيل واجبي المقدسين — واجب
حبك وواجب وطني العزيز .

وفي الحال انقلب جو المائدة من التجهم الى الصفاء وعادت
الابتسامات الى الوجوه المربدة ، واخذ المرح يسيطر على قلوبنا ومشاعرنا
فرشفنا جميعنا خمر العيد وشربنا نخب جنودنا البواسل وانشدنا

اغنية النضر .

وفي المساء ذهبنا الى منزله لتناول طعام العشاء ، فالفينا والدته
تنشج ، غير انها تجلّت عندما رأتنا داخلين عليها ، ورجبت بمقدمنا
متكلفة الابتسام امامنا .

اما والده فاستقبلنا ببشاشته المعهودة ، وخلق الهادي الرصين ،
وسمته الوقور ، ولطفه المعتاد ، كأنه لا يحفل بالغد الذي سيسلخ عنه
فلذة كبده ويترّجه في اتون الحرب .

واخذ المدعوون للعشاء من اقرباء خطيبي واصدقائه يتوافدون
لمشاركة اسرته في ليلة وداعه .

ولما اكتمل عقدهم جلسنا الى خوان غني ، بالوان الطعام والشراب
وبانواع الحلويات والفاكهة . ولا ابالغ اذا قلت : انه لم يكن عشاء
مألوفاً ، بل مأدبة من افخم المآدب ، تضم نخبة من ائمة الاسر
محتدأ . ومن انقاها ادباً ، واصفاها ذوقاً ، واغناها اناقة وظرفاً .

وكان خطيبي وحده مرتدياً لباس الجنود بين هذا الحفل الزاهي
بافخر الملابس . غير انه على الرغم من بساطة مظهره ، كان يبدو بينهم
كأنه البدر بين النجوم ، والوردة بين الازهار .

وافتح والده الحديث على المائدة فقال بعد كلام الترحيب :

كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً ، وارقصوا وغنوا ، ودعوا المرح يملك
نفوسكم والبهجة تغمر افئدتكم . فهذه المأدبة ليست مأدبة وداع
تبعث الجزع في النفوس . بل مأدبة ترمز الى بطولة شبابنا ودفاعهم
المجيد عن بلادنا وامبراطوريتنا المهدة . فلنشرب معاً نخب جنودنا

البواسل الذين يمثلهم بيننا هذا الجندي الذي جعلني اليوم في عداد
الآباء الكنديين الذين يفاخرون بآبائهم الاشواوس الزائدين عن حياض
الوطن .

ثم انتصب خطيبي قائلاً: مرحى للغد ، انه يوم الشباب الذي لا
يجنون رؤوسهم لغير الله ، ولا يتلكأون عن بذل ارواحهم في سبيل الحق
والحرية والكرامة الوطنية .

ثم شرع يهزج اهازيج الحرب ، بصوت جهوري اخاذ يثير المهمم
الراكدة ، ويحرك النفوس الراقدة . وكنا نحن الحاضرين نردد ازجاله
واغانيه ، بصدور تشتعل حماسة وقلوب تتقد اخلاصاً .

لقد اظهر في تلك الليلة من ضروب الهوس والاندفاع ما جعلني
اتحمله بطلا من ابطال الاساطير متقمصاً روح اله الحرب ، يدوس
الارض برجليه ، ويطال السماء بيديه ، ويمتطي افراس النور ،
ويتنقل على ظهورها ، من نصر الى نصر بين اطباق الشمس
والكواكب .

فعظم شأنه في عيني ، وزاد حبه في قلبي حتى بلغ مبلغ العبادة
ولا عجب في ذلك ولا استغراب ، فالمرأة في مزاجها الانثوي تعشق
الظرف في الرجال ، وفي عنصرها الروحي تعبد فيهم البطولة .
وكان اميل يتدفق جمالا ممزوجا بصلابة العضل ، وظرفاً مقروناً
بالبطولة ورقة الشائل . صوته زجرجة اسد في الغاب ، غير انه شهبي السميع شجي
الجرس والرنين . وعينه تتلألأ ن سناء بالنور وتقدان وهجا كالنار .
وحر كاته وسكناته كلها تدل على خلق متين واردة لا تقهر .

وبعد العشاء جلسنا في بهو المنزل نتجاذب الاحاديث ونتناوب العزف على الناي والكمان، وتبادل الرقص والغناء الى ما بعد منتصف الليل .

كانت واحق يقال سهرة حافلة بالانس والمرح على الرغم مما كان يشوبها من منغصات الوداع، ومما كان يتخللها من قطرات الدمع التي كانت تنساب بين الفينة والفينة على وجه والدته ووجهي، حتى ان بعضها كانت تبرز فجأة من مكمنها وتقفز قفزاً من المآقي كما يقفز على الارض ذبيح سخين الدماء .

وكنّا نحن الاثنين نبذل قصارى جهدنا لنتمكن من صدها وحبسها في مطاوي الاحداق، غير ان الفشل كان حليفنا، لان عاطفة الامومة كانت تغطي على ارادة الأم فتغلبها على امرها، وسعير الحب كان يسحق ارادتي ويجرقها بهيبه .

اما خطيبي فكانت ارادته الفولاذية تحبس دموعه في محجريه، وتلجم عواطفه في اصغريه، وتغمر بحياه بمظاهر الانفة والبشر وطمانينة النفس . انقضت السهرة وذهب المدعوون، وكنت آخر من ودعه على رتاج منزله . بعد ان اخذت منه عهداً بان يعودني في صباح الغد مستأذناً لي من القيادة بمرافقته الى الشكنة العسكرية والسماح لي ايضا بوداعه على ظهر الباخرة التي تقله الى ميدان الحرب .

وفي الغد جاءني مودعاً وقال لي : انه لم يتمكن من معرفة ساعة ابجاره، لانها سر من اسرار الحرب لا تبوح القيادة به . وكل ما تلبّغه الا يتخلف عن فرقته، وان يكون مجهزاً للابحار عند صدور الاوامر

ولهذا يستحيل عليّ مرافقته الى الشكنة ووداعه في السفينة. فاجبته
وانا اشفق بالبكاء: آم كم اتمنى ان اودعك في المركب والوح لك
من الشاطئ، بيدي المرتجفتين، واطل شاخصة اليك بعيني الدامعتين الى
ان تحجبك عني الامواج، وتطوي سفينتك اتياج اليم وتغييها عن
ثغرنا الجميل وبلادنا العزيزة. فاتيت تجابهني باسم القيادة برفض امنيتي
الوحيدة، ساحك الله وحفظك من كل مكروه.

فاجابني : امنيتك هذه هي امنيتي الغالية ولكن لا طاقة لي على
تنفيذها. فانا جندي مأمور لا قائد يصدر الاوامر. ثم طلب مني مقابلة والذي
فدخل عليها وودعها وداعاً حاراً، وانثنى اليّ قرآني كسيرة القلب واهية
النفس فقال لي : اريد منك وداعاً مقرونا باشراف الوجه وابتسامة الشفر
ومغموراً بانبساط القاب وشجاعة الروح لا وداعاً مغموساً بالاسى
والدموع، ومجبولاً بالخوف والتجهم

فسحت في الحال دموعي، وطويت الي في اعماق نفسي وتكلفت
امامه الابتسام. فودعته كما يشاء طلقة الوجه وضاحة الحيا.

ولما غاب عن ناظري، اطلقت لنفسي العنان فهامت في بيداء
الوحشة وغاصت في وادي الالم والدموع.

في ميدان الحرب

وبعد أيام تحققت سفره دون ان اعلم الى اين تتجه فرقته، ألى انكلمترا،
ام الى مصر، ام الى الهند .

لقد كنت كثيرة الهواجس والاضطراب لشدة قلقي على حياته من
جراً، ما كنت اقرأه في الصحف، واسمعه في المذياع، من وفرة عدد الغواصات
الجرمانية في محيطنا الاطلسي، وشدة بطشها بقوافلنا البحرية ونسفها
مراكبنا الزاخرة بالجنود .

ولما ابرق اليّ معلناً وصوله الى لندن، زاد خوفي عليه بسبب طائرات
العدو التي كانت تنقض على بريطانيا ليل نهار، وتمطرها وابل القذائف
وصواريخ النار، فتحرق اراضيها وتدمر ابراجها ومبانيها، وتفتك بسكانها
الآمنين، وتدع منازلهم انقاضاً مكدسة فوق جثثهم، مما لا تقوى
الغواصات على الاتيان بمثلها، مهما بلغت من القوة والعتاد، وبالغت في
البأس والجهاد، لان ميدانها محدود، وميدان الطائرات غير محدود، يشمل
البر والبحر وكل زاوية من زوايا الارض .

فاعتراني الشحوب والهزال من تفاقم الهواجس وقلق البال، وانتابني
صداع اجهد على اعصابي فزادها توتراً وايلاماً، وضاعفت سويداء
قلبي ظلاماً. فأويت فراشي منهوكة القوى معلولة الجسد والروح .

فجاءني طبيب الاسرة فاحصاً ولما عرف اسباب علتي، نصح ابوتي بان ينقلاني من المدينة الى الريف لتبديل الهواء والاستجمام من عناء الذكريات .

فاخذاني حالاً الى مزرعتنا الكائنة بجوار المدينة . وهناك كانت امي تغدق علي نصائحها القيمة وترمقني بكامل عطفها . وكان ابني يذهب الى عمله في النهار ، ويعود في المساء متأبطاً بمختلف الهدايا التي كان ينثرها علي فراشي غب وصوله . وكان دائماً يعللني برجوع خطيبي ، ويتنبأ لي بمستقبل مجيد .

ولن انسى ما قاله لي مرة : اغتبطي بخطيبك الذي آثر وطنه علي نفسه ، فكفر بالانانية والخوف ومضى بعيداً يحارب العدو المجتاح ليرد عن ارضنا غائلة اثمه وطغيانه .

فهل تؤثرين نفسك علي وطنك ، وتودين بقاء خطيبك قابلاً في جوارك ، تاركاً بلاده العزيزة مهددة بالعبودية والخراب ، دون ان تستفزه حمية ، وتدفعه نخوة ، ويغلي في عروقه دم . فهل تحببينه تمثالاً بارداً كالرخام لا حرارة في صدره ولا اقدام في جناحه .

فارعويت لبصائح والدي ، وسلمت امري لله متوسلة اليه بان يحفظ حبيبي ويذره عنه اخطار الحرب .

وبدأت التحرر من الاضطرابات النفسية ، لاقتناعي التام باندفاع خطيبي في تأدية واجبه المقدس نحو وطنه — هذا الواجب الذي لا مفر منه لصيانة بلادنا وامبراطوريتنا .

ورجعت الى المدينة هادئة الاعصاب ، ارتاد انديتها ومسارحها

كالعتاد، وازهو امام رفيقائي بالوطنية المثلى التي يتصف بها خطيبي،
وبالشجاعة النادرة التي يتحلّى بها .

وفي عصاري يوم ممطر شديد القر، بينما كنت جالسة حيال المدفأة
اطالع كتاب النبي لجبران - هذه القلادة الروحية النفيسة التي صاغها
فقيه الادب اللبناني بين صخب الآلات وضجيج المركبات، في مدينة
نيويورك العظمى التي يقدرها اهلها العبقريّة المادية في دوائر الاعمال،
ويعبدون صنم المال. دخل علي الساعى بكتاب وانا مأخوذة بسحر المؤلف
في وصف المحبة وتشريحها، ومشدوّهة بوداعة روحه، وسمو خياله.
ففضضت الرسالة فاذا هي من خطيبي، بعث بها اليّ من عاصمة مصر
قاعدة الفراعنة ومجلى العروبة وها هي بحذافيرها :
عزيزتي :

لاشيء في ميدان القتال يملأ فراغ قلبي غير ذكرك العطر، ولا
شيء يسليني، بين زئير الدبابات، وازيد القانصات، ولعلعة المدافع، غير
ذخيرتك المقدسة التي تتدلى على صدري حاملة رسمك الكريم، فهي التي
تسدّد خطاي وتشدّد عزمي وتحفظني من المكاره .

منذ اربعة اشهر ونيف التحقت بالفرق المصفحة في جيش الشرق
الاوسط . وقد خضت حتى الان عدة معارك في صحراء مصر وليبيا ،
كنت فيها حائزاً على ثقة اوليائي لتفوقي في الشجاعة وحسن الرماية ،
ولدرايتي في اعداد الآلات الميكانيكية وقيادة الدبابات .

والحرب اليوم يا عزيزتي حرب آليّة خاطفة تمثل فيها الطائرات
والمصفحات اعظم الادوار واهمها .

لقد كنت في مقدمة الهاجين على ثغر طبرق الحصين، واول الداخلين اليه في دبابتي بعد قتال عنيف، فمنحت شارة وضعها القائد على صدري في ساحة المدينة.

اما الصحراء التي قطعتها في مقدمة الجيش، فهي عبارة عن قفر شاسع فسيح الارجاء، لا تقع فيه العين الا على فلول هائلة عديمة الحياة، تتلوها فلول اكثر من الجحيم هولاً، ولا يتبين فيها ايضاً غير كسبان مترامية الآفاق، تتبلور رمالها في وهج الشمس، وتتماوج ظلالها على اضواء القمر، فتكوي بحرّها في الهاجرة، وتلدع بقرها في زحمة الليل. تعقبها كسبان هوج تتطاير وتتقاذف في الفضاء كأنها بركان ثائر تتصاعد حممه في الجو ثم تتساقط على الارض تساقط الرجم. لقد كانت تلك الكسبان الثائرة اشد وبالا علينا من وطأة قنابل الاعداء وقذائف قانصاتهم. والويل فيها لمن ضل السبيل. فلن يعثر عليه. ولن تاه عن القبيل فلن يهتدى اليه. فيقضي جوعاً وعطشاً وتسمي بقاياها كالدمى تلعب بها السافيات. وتذريها في تلك المهامه كما تذري الرمال.

وعلى الرغم من هذا كله، لم اشعر بذرة من الوجل عند اجتيازي الصحراء الوحشة فقد عبرتها مع الفرق الآلية اتعقب العدو كما يعبر الاسد الذي يتعقب فريسته. وكنت كلما تغلغت في مفازاتها المهيبة اشعر بالذلة التي يشعر بها السائح كلما دخل بلداً جديداً، وشاهد امامه عالماً جديداً. والصحراء كانت لي بمثابة عالم جديد، لان عيني لم تكتحلا بروية كسبانها ومفاوزها قبل اليوم.

اما مصر التي قدّر لي ان اقضي فيها فرصة الاستراحة فهي بلاد
 قديمة تطوي في احشائها اقدم مدينة عرفها الناس . فآثارها الفرعونية هي
 بلا جدال اعظم تراثٍ تخلّد ورثه البشر عن الغابرين .

فالاهرام وحدها عظمة لا تعلوها عظمة ، وبقايا القبور والهياكل
 تحفٌ نادرة لا يضاهيها بقايا . ومخلفات العرب حجة جلية الشأن ، ادهشي
 فيها ضخّم المساجد ، وبديع المآذن ورائع الاعمدة والمحاريب . فهي نسيج
 عبقري في عالم البناء والفن .

هذه نظرة اجمالية وددت ان احيطك علما بها على سبيل الامام
 بما تكنه ارض مصر من عجائب بقايا الانسان الغابر .

ويا حبذا او كان لديّ متسع من الوقت لصرفته بين تلك الجدر
 والانقاض باحثاً منقباً عن الحضارات التي سبقت التاريخ وطويت في
 احشاء الارض ، كما تطوى الافكار في ثنايا الاوراق . لكنني هبطت
 مصر لاخوض ميدان الحرب لا ميدان علم الآثار .

اما القاهرة عاصمة مصر اليوم فهي مدينة ضخمة عصرية الطراز ، أنيقة
 المباني ، فسيحة الشوارع والجادات عدا قسم ضئيل منها لا يزال على
 كيانه القديم يحمل طابعاً شرقياً بأبنيته المتواضعة ، وشوارعه الضيقة .
 غير انه ينعم ببضعة أبنية اثرية تستحق الاعجاب والتقدير .

ومما لا ريب فيه ، ان هذه العاصمة لا تقل شأنًا عن عواصم العالم
 المتمدن في سعة عمرانها . فهي تضم بين جوانبها احدث الجامعات
 والمتاحف ، واجمل القصور والدور وابهج المسارح والملاهي ، وأكمل
 الفنادق والحدائق . يتوسطها نهر النيل ابعد انهر العالم مدى ، واوسعها

انتشاراً. ويسرح في ارباضها مثلاً لبذهبياته الفضفاضة الشراع الراسية على ضفتيه والمتبخرة في عبابه .

فهو لعمرى يسبح على هذه المدينة جمالاً وجلالاً يأخذان بمجامع القلب واللب، ويحيطها بهالات نورانية غريبة اللون والظلال، تبدو كأنها قبس من انوار الآلهة القدامى تتأرجح فيه ظلال ارواحهم .

انني لسعيد بوجودي في هذه العاصمة التي يتكلم اهلها اللغة العربية التي ناغتني بها ابي وانا في الاقطة، ودغدغتني بحلاوة الفاظها وانا في اشراق الطفولة فتمتعت بها اول ما تمتعت، وثقت بمخارج حروفها اول ما نطقت، غير انني ترعرت بعيداً عنها، ففاتني ادراك فهمها وتجويد النطق بها . فبدأت اليوم اتعلمها في مصر على رغم صعوبتها محافظة على تراث اسرتي القديم، ودوام اتصال ماضيها بالتدبير بحاضرها الطريف .

لم تيسر لي زيارة لبنان في هذه الفرصة القصيرة . فحسب ان اتمكن من ذلك في اجازتي الثانية، فاشاهد الجبل الذي ابصرت فيه النور، وتركت رضى على صدر ابي، وبين ذراعي ابي . غير ان الحظ ساعدني لا تعرف الى بعض اللبنانيين النازلين مصر . انهم قوم على جانب عظيم من الثقافة ونبيل الاخلاق . لقد غمروني حقاً بفضلهم وكرمهم، ودعوني مراراً مع رفاقي الجنود الى ناديتهم، وكانوا يتسابقون الى ضيافتنا وتكرمتنا، ويعطفون علينا عطف ذوي الارحام، حتى ان احدهم رفاقي الجنود وهو من مدينة كباك قال لي : هنيئاً لك بلبنان وباللبنانيين .

وفي احدى المآدب التي اقاموها لنا، تعرفت الى بعض المدعوين من جنود اميركا الذين هم مثلي من اصل لبناني .

فاشدت اواصر صداقتنا في الحال، لارتباطها برباط الوطن القديم .
وكم اشتهيت أن تكوني حاضرة هذه المأدبة الفخمة التي تضاهي بشهي
طعامها، وتنوع ألوانها، وشعاع راحها واهازيج ناسها مآدب عيد
الميلاد .

لقد زادني لبنانيو مصر محبة للبنان، وتعلقاً بأهله . وزادوني رغبة
وحنيناً لزيارة ربوعه، وجعلوني افخر بلبنان كما افخر بكندا التي هي احد
كواكب امبراطوريتنا التي لا تغيب عنها الشمس .
وانت ايضاً تتين بصلة الى لبنان، ولو كنت كندية اصيلة الموطن
والمولد . قدم والدك المهاجر اللبناني يسري في عروقك ممتزجاً بدماء
والدتك الكندية الفرنسية الاصل .

لقد جبلك الله من خمرة معتقة مثلثة الاقانيم، كل اقنوم يزهو بشعاعه
الخاص، ويؤلف مجموعاً فاتناً ساحراً . فسنا لحاظك المعسولة من راح
لبنان، ورشاقة روحك الخالبة من كرمة فرنسا، ونصاعة وجهك المشرب
بالورد من ثلوج كندا وجنانها العابقة بالاريج .

اما خلقك النبيل فهو نفحة من نفحات الله . فتوسلي اليه تعالى،
يا اظهر نفحاته، كي يحجب دماء خلقه، وينصر حلفاء الحق على حلفاء
الباطل . ويجمعنا معاً في مهد الحب وكنف الاهل ...

هذه هي رسالته الاولى الممتعة، تلوتها مراراً لا بل مئات المرات ...
وكم وقفت اتمعظ بكل كلمة من كلماتها، واتقصى كل جملة من جملها،
فاتحيل طيفه متجأياً في حنايا السطور، واتمثل روحه مشرئبة من ثنايا
الحروف .

ثم انقطع عني بضعة اشهر دون ان يخصني برسالة او ببرقية ارتاح اليها .
فساورتني الظنون ؛ وامسيت اترقب بفارغ الصبر اخبار الحرب ؛
واقف امام المذيع او اصل تحرياتي في معارك الشرق الادنى .

وقد زادت هواجسي عليه حتى بلغت درجة اليأس بـعد هزيمة الحلفاء
في طبرق ، وارتدادهم السريع عن ليبيا وعن بعض ارجاء مصر المتاخمة
لها . وصمودهم في العلمين المعقل القريب من الاسكندرية .

ان هذه الهزيمة المشؤومة جعلتني اتقلب على احرام من الجربين افكار
متناقضة شديدة التجهم ؛ وظنون مرجلة كلها حالكة اللون . فكان كل
فكر يقض مضجعي ؛ وكل حدس يشلني ويضعض قواي .

.

ودال الزمان على صفوف المحور فعاد الحلفاء الى ليبيا يخطفون
ارضها من العدو اختطافاً ، وينقضون على معاقلها ومدنها انقضاض
النسور .

ثم رست مراكب الحلفاء على شواطئ تونس ، ثقل جيوشاً مجهزة
باوفر العدد والمعدات ، تحميها في الجو اسراب هائلة من احدث الطائرات
والقنصات ؛ ويصونها في البحر اسطول ضخيم مؤلف من اعظم المدرعات
والمدمرات . وقد ساعد على نزولها في تلك البطاح جيش فرنسي مرابط
هناك ؛ انتقض على الهدنة التي وقعتها المرشال بتان واعوانه مع الالمان
وحلفائهم ، وانضم بجملة الى جنودنا البواسل .

فامست قوات المحور بين نارين : نار تشتعل في تونس وتقذفها
بصواعق الحم ، ونار تتأجج في ليبيا وتمطرها بقذائف الجحيم .

لقد كانت معركة افريقيا من ادوع المعارك في هذه الحرب، تلاحم فيها الفريقان ملحمة الفناء. وانتهت بانهزام المحور وابدادة جيشه في القطاع الافريقي كله، على الرغم من استبساله ودفاعه المستميت عن كل بقعة من تلك البقاع الصحراوية، وعن كل واحدة من واحاتها المبعثرة في خضم الرمال، وعن كل شبر من غياضها المخضلة وربوعها الآهلة.

وبينا كان الحلفاء يتبادلون تهاني، الظفر، ويهاونون لاستئصالهم شأفة العدو من شمالي افريقيا، كانت كندا ايضاً ترفع الوية النصر على مشارف دورها ومبانيها العامة. وفتيان مونتريال وفتياتها يتألبون في شوارعها المزدانة بالشارات والاعلام، يملأون الفضاء باناشيدهم وهتافاتهم وكنت انا بينهم اهزج مع الهازجين، ونفسي مقسمة تترجح بين عاملين: عامل الفرح للنصر الحاسم الذي احرزته جيوشنا في الشرق الاوسط، وعامل الخوف على حياة خطيبي الذي قطع عني اخباره من امد بعيد.

فكان لساني يهزج بملء شذقيه، في حين كان جسمي يضطرم بهواجس قلبه وانتفاض رثيته.

صورٌ فطيعة. وتخيّلاتٌ رابعة كانت تتعالم ذهني وتنطبع في مشاعري. حيث كنت تارةً اتخيل خطيبي ممدداً في الصحراء تنهشه الضواري، وتنقض عليه النسور، وتلعب به زوابع الرمل. وطوراً اتصوره جريحاً تائهاً في موحشات القفار، قد يقضي حتف انفه جوعاً وعطشاً وزيفاً. واحياناً كان يتراءى لي مقيداً بغلائل الاسر، مكرهاً على القيام بأشق الاعمال وامضها.

هكذا كنت مترجعة النفس، عندما جاءني كتابه الثاني يحمل
اليّ بشار سلامته وغرر جهاده . فكان لي روحاً علوياً انعشني املا
ورجاء .

وهذه هي رسالته التي اثلجت صدري ومحت من مخيلتي فظائع تلك
الصور الرهيبة .

عزيزتي

لا شك انك في هاجس من نحوي لتخلفي عن مكاتبك طيلة بضعة
اشهر قضيتها كلها في جبهة الحرب — هذه الجبهة المترامية الاطراف
والمجاهل، الممتدة من مصر الى مراکش

لقد كتب لنا بان نجابه فيها عدواً قوي الشكيمة شديد المراس،
مكتمل الالهية، وان نحاربه في ارض وعرة معظمها صحراوي، شديد
الحر، معدوم الماء والنبات، ومع كل هذا اعد نفسي من المحظوظين حيث
تسنى لي ان اخوض هذه المعركة الرهيبة التي تعتبر من اروع معارك
البشر .

وقد ظلت مدة طويلة تتراوح بين كرت وفر، وتقدم وتراجع، الى ان
قيض الله لنا ان نفني الاعداء ونبيدهم من تلك القطاعات الشاسعة .
لقد قت خير قيام بكل ما عهد اليّ من المهمات، وكنت كلما
ازدادت المهمة خطراً، او اشتدت المعركة هولاً ازداد صموداً واشتد
عوداً .

فجرح في موقعة تونس جرحاً تافهاً التأم في بضعة ايام، ثم عدت
للنضال الى ان دقت اجراس النصر .

فمنحت رتبة ضابط في الجيش وعدة شارات كلها تدل على تفاني
وتفوقي في اساليب الحرب .

وبعد انتهاء العراق اذن لي بان اقضي اجازتي في تونس ، هذه المدينة
الملقبة بالخضراء ، لكثرة ما فيها من الرياض والحدائق ، وما يحيط بها من
غابات النخيل والزيتون وباسق الشجر . وهي في هندسة ابنتها ، واشكال
سكانها عبارة عن مزيج شرقي غربي ، والساحل الافريقي في حوض
المتوسط كله من هذا المزيج ، يتلاقى فيه طارف الغرب بتليد الشرق ،
وتتعانق قباب كنائسه وماذن مساجده ، كما تختلط فيه السنة الفرنجة
برطانة البربر ولغة العرب ، وتمتزج القبعات والقلائس بالطرايش والعمائم ،
واللباس « المزمك » الكامد اللون ، بالقفطان الفضفاض والبرانس
المزركشة .

والنساء ايضا في هذا القطر ، اشكال والوان ، بعضهن ناصع الوجه
ازرق العينين يتجهرج بافانين الغرب ويتزيا بازياثته . وبعضهن حنطي
البشرة اشهل الطرف يجمع بين اللونين والقيافتين العربية والشرقية ،
ويبدو فيها وافر الفتنة رائع الجمال . وبعضهن شديد السمرة اكحل
اللحاظ يتجلبلب بجلباب الشرق ويتحجب بحجابيه .

غير انه يخفي وراء الملاءات عيوناً حالكه كالليل وهاجة كالماس
الاسود .

فمن يطوف في احياء هذه المدينة ، يشعر كأنه في مسرح للصور
المشبكة لا في مدينة كمدن بلادنا . حيث تعرض امامه انواع الجنس
البشري بمختلف اقوامه والوانه ومجمل عاداته وازيائه .

وما يفوت هذه المدينة من ذلك، يتممه منظر جيشنا الحليف الرابض في تلك الاصقاع، والمؤلف من شتى الاقطار والامصار ومن مختلف الاجناس والالوان .

.

لم اتمكن من زيارة لبنان مع كل رغبتى في مشاهدة ربوعه حتى اننى فضلت الالتحاق بجيش الشرق الاوسط، لعالي افوز بأمنيته هذه التي هي ايضاً امنية والدي العزيزين .

لكن ظروف الحرب حالت بيني وبين هذا الجبل الذي شغفت به منذ طفولتي، ورشفت حبه رضيعاً على صدر امي وبين احضان ابي . فترعرت في الحجر الابوي لا اسمع خبراً اشهى على القلب من اخباره، ولا ذكراً اطيب من ذكرياته، ولا اعي حديثاً اوقع في النفس من الحديث عن روعة جماله، وجلال ارزه، ومفاخر آله .

فمنذ بدأت ادرك الامور، كان لبنان ولا يزال محور حديث ابوي وبيت قصيدهما، فكيف لا يكون محور حديثي وبيت قصيدي وقد تفرعت من دوختها وانسلخت من جرثومتها .

لقد تعرفت بجندي امير كي المولد، لبناني الاصل، اسعده الحظ بمشاهدة لبنان. فزودني منه اخباراً طريفة تستهوي اللب والمشاعر وهذا بعض ما قاله لي :

ما خلق الله بقاءً اجمل من لبنان ولا اودية او هضاباً اروع من اوديته وهضابه، ولا هواء او ماء انعش من هوائه واعذب من مائه، ولا قومًا اكرم واعطف من قومه، ولا قرويين او فلاحين ارقى من

قرويه وانظف من فلاحيه .

واردف انه صرف هناك قرابة شهر تذوق فيه اشهى المتع واللذات، وشاهد ارز الرب الخالد وتنقل بين اشجاره الهازئة بكرات العواصف وتعاقب الاجيال. وهبط قرية آبائه واجداده، فرآها منزوية في ركن متواضع من اركان الجبل النائية عن مواطن الاضطياف ومجملات الانسان. غير انه الفاها على عرائها من القصور والدور، والجادات المرصوفة، والساحات المنظمة، والحدائق المنمقة، تتميز بجمال طبيعي يقصر عنه الفن، وترفل بسكان اقوياء البنية كرماء الاخلاق، يطفح الورد من نضارة وجوههم، ويلمع الذكاء من عيونهم ويقطن الجود في حنايا صدورهم.

لقد استقبلوه استقبال الفاتحين، وكانوا يبالغون في تكريمه ويقومون له المآدب اثر المآدب، ويعدون له الذبائح تلو الذبائح. كأنهم في عرس دائم او كأنه كما قال الانجيل. كان ميتاً فعاش وضالاً فوجد.

وكانت عجائز البلدة يعانقنه بدموع الفرح، والصبايا يحمينه بهري، الابتسامات والزغاريد، والفتيان يبهرونه بالعباب السيف ويفعمون قلبه بمختلف الملاهي والاهازيج. اما الشيوخ فكانوا يضمونه الى صدورهم ويعاملونه كأحد اولادهم. والصغار كانوا يعتبرونه كأحد عموماتهم واخوانهم.

فخيل اليه وهو بينهم، كأنه عاش في النعيم، بين بشر غير هذا البشر وفي بقاع كوكب غير هذا الكوكب.

لقد اسمعني اخباراً وتوارد كثيرة عن لبنان، لا يستوعبها كتاب

ضخم اذا شئت ان اسردّها لك بجذافيرها . وكلّها من هذا الطراز ، تستهوي القلب ، لزيارة ربوعه وغشيان ارضه ، وتستشف النفس للتعرف الى مختلف سكانه ومجمل انجائه .

فعوّلت على زيارته معك فور انتهاء الحرب ، وبعد حفلة زفافنا لنقضي عامنا العسلي كله في بلد المن والعسل ١٠

.

نحن اليوم على وشك الانقراض على اوروبا ، قلعة جرمانيا الهتلرية وحصنها الحصين . ولنا ملء الامل بأن ننزع عنها قريباً غلّ الاستبداد النازي ، وفظاعة استعباده لشعوبها الراححة تحت نيره الرهيب .

سأكتب اليك مفصّلاً عن اول عاصمة اوروبية نستولي عليها ، ولا ادري انبدأ بدخول روما الخالدة او غيرها من العواصم .

وعلى كلّ فالنصر اصبحت منا على قاب قوسين . سنجتاح بلاد المحور حتماً ، ونقهر العدو في عقر داره قريباً ان شاء الله

غداً اعود الى كندا المحبوبة ، الى مونتريال مدينتنا الجميلة التي تطوي في حناياها ذكريات حداثتنا . واطياف ايامنا المدرسية ، وتحفظ في جوانحها سعير حبنا ووهج غرامنا .

غداً يعود الطائر الى عشه ، ويرفرف على افنان دوحته ويغرّد على مخضّل ايكته . اجل غداً يعود المجاهد الى وطنه ويرتج بين قومه وآله في جوار عروس احلامه ومسرح آماله .

ولما تسأمت هذه الرسالة ، كان الحلفاء قد انتهوا من غزو جزيرة سردينيا وتقدموا الى صقلية . فدانت لهم بعد معارك ضارية وقتال عنيف

ثم اغاروا على مرفأ نابولي في البحر والجو ووطدوا فيه اقدامهم تحت
وابل القنابل وجحيم المتفجرات ولهب النيران .

كنت كل يوم اتلقف الجرائد الصباحية والمساءية منذ صدورها ،
لاتسقط اخبار الحرب . وكان المذيع سميري الوحيد ، اتناول منه
الانباء من معظم العواصم الحليفة حتى من بعض عواصم العدو لاثبت
اصح المعلومات التي اركن اليها .

اما حملة ايطاليا فكنت ارقب اخبارها بالثواني والدقائق بلهفة لأن
خطيبي كان في عداد ابطالها .

ولما بدأت معركة كاسينو وانزوي ، وتبينت هول ضحاياها ، وما
جرى فيها من التطاحن المستميت بين الفريقين اللذين كانا هناك يتحاربان
بضراوة ، ويدافعان عن كل منزل وعن كل شبر من الارض . حتى ان
العدو لم يدع هذين الموقعين الحصينين الا انقاضاً مغمورة بالجثث والدماء .
فهلعت على خطيبي ان يكون لقي حتفه هناك . غير اني كنت سالية
بعض الشيء ، اولا لعدم عشوري على اسمه في النشرات التي كانت
تذيعها الحكومة باسماء القتلى والاسرى والمفقودين من جنودنا . وثانياً
لثغلب الحلفاء على اعدائهم وتقدمهم شطر العاصمة الايطالية ، حيث كنت
اعال النفس بسقوطها القريب ، واستلام برقية اورسالة من خطيبي
اثر احتلالها . على ان تقدم الحلفاء نحو روما كان بطيئاً ، لأن الحرب كانت
سجالاً بينهم وبين اعدائهم الذين كانوا على جانب عظيم من القوة ووفرة
الاعتدة . وكانت وعورة الارض الايطالية تساعد على الصمود
طويلاً في وجه الحلفاء ، وازال الخسائر الفادحة في صفوفهم .

وقد صحت ذات يوم على رنين اجراس المدينة وهتافات سكانها .
ذلك كان ابتهاجاً بسقوط روما بأيدي الحلفاء . فارتدبت ثيابي وهبطت
الشارع اظاهر مع المتظاهرين ، واهتف مع الهاتفين الذين كانوا يمثلون
كل الطبقات ، ويتوافر بينهم عدد الطلبة والطالبات فلم اشاهد يوماً بعد
فراق خطيبي ابرج للعين من هذا اليوم الذي عمّ فرحه المدينة باجمعها ، لا
بل البلاد بأسرها .

وفي اليوم التالي تسأمت برقية منه يحيطني علماً بهذا الحدث العظيم
وينبئني عن سلامته . فازددت حبوراً وطفح قلبي سروراً .
وبعد مرور شهر وبعض الشهر جاني موزع البريد برسالته الآتية :
عزيزتي :

١ من عاصمة القياصرة الذين دان لهم العالم القديم — من مدينتهم
الخالدة ، مدينة الرسول بطرس خليفة الخاص ، ومن ساحة قصر البندقية
مقر الدوتشي مؤسس الفاشية ، وزعيمها الذي طالما تبجح بقوته ،
ودخله الغرور بنفسه باعادة مجد روما وسيطرتها على الكون ، بشرّك
بهذا النصر المبين الذي احرزته جيوشنا في اصقاع ايطاليا وقطاعاتها
المنيعه .

لقد حاربت ببسالة وايمان حي تحت لواء الديوقراطية الحافلة باسمي
المبادئ الانسانية مبادئ الحريات الاربع التي وعد بها روزفلت العظيم
شعوب العالم اجمع باسم اميركا وحلفائها ، الا وهي : حرية القول والرأي
حرية العبادة — التحرر من العوز والفقر — التحرر من الخوف
واني لواثق من تعميم هذه المبادئ بعد الحرب والاهتمام بتطبيقها

على اكل الوجوه، كي يعيش الناس بأمن ورفاهية دون اثرة وطغيان
وتعسف. فاناصوني من اخص قدمي الى قمة رأسي، اكره الاثرة والارهاق،
واحب الحق والحرية والمساواة

ترينني لهذه الغاية الشريفة استميت جهاداً في الحرب، وازداد بأسافي
اقتحام ميادينها. فتقدمت بسرعة في رتب الجيش واحزرت بعام ما لا
يحزره غيري باعوام .

لقد خسرت في معارك ايطاليا عدة اصدقاء توجعت كثيراً لفقدهم،
لأنهم كانوا من ابلج جنودنا والمع شباب وطننا. بينهم اليف صباي
ورفيقي في الجامعة وفي معهد الحقوق جاك - الشاب الظريف الراقي الذي
تعرفيناه كل المعرفة وتقديرينه حق التقدير .

سقط في ساحة السرف على بضعة امتار مني، فهرعت الى نجدته،
وكلمته فلم يجب، غير انه ودعني بنظرة مغموسة بالدمع والنجيع،
واسلم روحه بين يدي .

ان نظوته تلك هزت مشاعري هزاً، وكانت في مغزاها البعيد
اوقع في نفسي من كل عظة، وابلغ من كل خطاب . فشيعته الى مرقده
الاخير في جوار اطلال مدينة كسينو ووضعت على قبره صليباً، وطاقة
من الورد الناصع .

وكم تمنيت لو كان بوسعي ان اواريه شغاف القلب، او على الاقل
ان اكفنه بتراب الوطن الذي مات لأجله .

في اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٤٤ دخل جيشنا المظفر
روما الخالدة، وقد شاءت العناية الالهية ان تدرأ عنها ويلات الحرب .

فألهمت رجال المحور جعلها مدينة مفتوحة، فسلمت من الخراب، وبقيت كنوزها الاثرية محفوظة في اماكنها، تعبر عن ماضيها المجيد في العصر الروماني البالغ منتهى القوة والسيادة، وتعرب في عهد الانجيل عن بدائع الالهام المسيحي، ومعجزات وحيه وفنه

وقفت البارحة على ضفاف نهر التير استعرض العصور الخوالي التي مرت على هذه المدينة . التير الذي عاين ولايتها على ضفافه، وعمدها بجائه، وما برح يرويها بكوثره ، اكبر شاهد عيان على مختلف وقائعها واحداثها خلال تاريخها الطويل .

لقد دالت عنها دولة الآلهة والقيصرة، فاحت من قلوب سكانها عبادة جوبيتر ومارس ومينرف وغيرهم، كما تلاشى حكم يوليوس واغسطس ونرون . ولم يبق من كل ذلك غير بقايا عمد واطلال جدُر ومعالم محطمة، وقماثيل بعضها مهشم وبعضها سليم . غير انها كلها تدل على ما كان لهذه المدينة في العالم القديم من واسع السلطان والنفوذ وما كان لأهلها من وافر النبوغ في مناحي الفن وساليب التنظيم .

وشد ماراغي من آثارها القديمة، مشهد الدياميس «الكتا كومب» القائمة في جوارها وهي سراديب في جوف الارض، متفرعة الانفاق، مترامية الافاق، يضيع السائح في داخلها بلا مرشد يرشده الى اجتيازها. لقد كانت فيما مضى موئل المسيحيين الاولين، يقيمون فيها شعائهم الدينية خوفاً من الاضطهاد. وهي تحتوي على بقاياهم وآثارهم، وتدل على ما كانوا يقاسونه من العذاب والتنكيل في سبيل عقيدتهم. فانتصروا على الوثنية الرومانية بقوة الايمان، وبذل الارواح، لا بقوة

السلاح . هكذا نحن اليوم سنتغلب على المحور بقوة ايماننا بالديقراطية
وبذل ارواحنا في سبيلها .

اما الفاتيكان معقل خلفاء الرسول بطرس ، فهو في روما اليوم آية
الآيات .

جئته امس وعبرت اليه من ساحة هامة الرسل التي تشرف على
مدخله الرئيسي ، وتطل على اعمدته الجبارة القائمة على جانبيه قيام الرسل
على جانبي المخلص . تتصدرها ام الكنائس المسيحية المزدانة في منظرها
الخارجي بابدع التماثيل واروع القباب ، والمتلاثلة في داخلها بجماع معالم
الفن واشعاع الروح ، وعجائب الالهام البشري .

وفي باحات القصر الرسولي يقوم معبد سكستين الشهير الموشى
برسم الدينونة لميكالنج . وهو اروع رسم لاعظم فنان عبقرى عرفه
الناس . ويحضن الفاتيكان ايضاً في ردهاته الواسعة آيات رافائل وبدائع
عظماء الفنانين الغابرين . ناهيك عن متحفه الرائع الذي يحتوي أنفس
مخلفات الانسان ، واندر الهدايا المقدمة للباباوات من ذوي التيجان
وارباب السلطان .

فمن يشاهد كل هذه الروائع ، يقدر ما لأخبار روما من الايادي
البيضاء في احياء الفن وتخليد آثاره .

ويوجد في روما عدا الفاتيكان عدة قصور اثرية تحفظ ضمن
جدرانها انداد الكنوز والتحف ، وادهش التماثيل والصور . وما تمثل
موسى سوى احدى تلك النفائس الغالية التي لا ينقصها بلوغ الكمال ،
غير ديب الحياة في تضاعيف اجزائها الرخامية وحنايا ضلوعها الباردة .

هذه لمحة عجلت عن مدينة روما وددت التحفاك بها على سبيل الالمام
بعضمة آثارها وفنونها ، ليقيني التام برغبتك الحارة في معرفة ذلك .
وثقي بانني لم استوعب من كنوزها الخالدة غير النزر اليسير . وهل
يتمكن جندي مثلي ، عابر طريق ، من الوصول الى اكثر من ذلك ؟
لا سيما ان استيعاب درسها يتطلب اختصاصاً ويستغرق اعواماً .
لقد استلمت هداياك وهدايا والدي العزيزين في بريد الجنود .
وكذلك رسالة منك واخرى منها . فطبت نفساً لاطمئناني الى اعز اغرائي
في هذه الحياة .

اني امحضك الشكر على هديتك الثمينة المحتوية على اندر
المحففات الغذائية وعلى لفائف التبغ الهافاني المشهور . فبدأت منذ وصولها
ادخن « سيجاراً » منها واتنعم بنكهته الطيبة .
وقد خيل الي كأنك عن بعد تستمرئين رائحة دخاني المتصاعد في
الفضاء ، كما كنت تستعذبن شذاه متناثراً من في في فناء مكتبك
الجميل .

غداً تنتهي هذه الحرب ، واعدود اليك ظافراً بأذن الله ، فينتشر اريج
دخاني مجدداً في جو منزلك ، وتنطلق عطور لفائفي متماوجة مع عطور
أنفاسك ، وممزجة برياحين حديقتك .

في الامسيات الهادئة يجتمع الجنود حلقات حلقات في مواقعهم
« الاستراتيجية » او في ثكناتهم المنعزلة عن مناطق القتال ، فيتسامرون
ويتنادرون ، ويتحدث كل منهم عن اشهى ذكرياته واعذبها على قلبه .
فجميعهم يتساوون بالحمية والاندفاع حينما يتحدثون عن وطنهم

ويرددون اطايب ذكره . غير انهم يتباينون في سائر الاحاديث
والذكريات المتصلة باعمالهم الخاصة، وبشؤون اهلهم واحبائهم .

فمنهم من لا يخلو حديثه من ذكر الازواج والاولاد، ومنهم من
لا يقطع الكلام عن مهنته او دائرة عمله، ومنهم من لا يفرغ لسانه من
اخبار ابويه واشقائه، ومنهم من يرشف على الدوام سلاف حبه ويردد
ذكريات غرامه .

وانا بالطبع لا ينتظم عقدي الا في حلقة هؤلاء الآخرين الذين لا
يبرد حرو وجدهم في اوقات فراغهم من مشاغل الحرب، غير حديث
الحب ورائع ذكرياته .

عصاري امس ذهبت الى احد المستشفيات العسكرية لعيادة الجرحى
من رفاقنا . فشاهدت بعض المتطوعات في الصليب الاحمر، يتفانين في
خدمتهم، ويتسابقن الى تضميم جراحهم . وتوفير الراحة لهم . بينهم فتاة
اميركية الاصل، تشبهك خلقاً وخلقا . الفيتها كملاك الرحمة تتنقل في
ردهات المصح، تأسو الجنود وتواسيهم وتغلق عليهم من وافر عطفها
ما يحیی فيهم ميت الامل والرجاء، وتوزع عليهم من بساتنها الملائكية
ما ينعش ارواحهم ويجدد نشاطهم .

ولولا خوفي على حياتك التي هي عندي اغلى من حياتي، اكنتم
اتمنى ان اراك مثلها تخدمين الانسانية الجريح متطوعة في هذه المبرة
الشريفة التي طالما شاهدت افرادها يخترقون مواقع القتال، مجازفين
بارواحهم في سبيل انقاذ الجرحى واغاثة المحتضرين .

كتبت الى والدي الخنوين، شاكراً لها عطفها الابوي وهداياهما

النفيسة . واوصيتها بك يا ملاكي الحارس ، يا بسمة الامل — يا جناح الروح .

هذا آخر كتاب وصلني منه ، لا يبرح جعبي ، وقد اصبح صلاتي اليومية اردد تلاوته اضعاف ما تردد راهبة الدير صلواتها وتأملاتها .

وفي اليوم السابع من شهر آب من السنة نفسها ، تبلى صديق اسرتنا وجارنا العزيز السيد روبر ، خبر مصرع ولده الوحيد ارنست على جبهة نورمانديا بالقرب من مدينة كان الفرنسية التي سقطت في ايدي الحلفاء في اليوم العاشر من تموز المنصرم

فاكبرت الخطب في هذا الفقيد العزيز الذي كان يتمتع بشباب غض وثقافة عالية وصفات نادرة . ناهيك عما يربطنا باسرتة الكريمة من حسن الصلات والجوار وصادق الود .

فراقت ابوي لمؤاساة والديه . فلم استطع حبس الدمع والزفير عند مشاهدتي والدته المسكينة مقروحة القلب مشلولة الجسد . لا سلوان يخفف وهج خطبها ولا عزاء يبرد حر قلبها .

فالمني كثيراً مشهد هذه الام الشكلي ، وما برح حتى الآن يؤلمني كلما تراءت هذه المرأة امامي بهيكلها المتداعي ، ودمعها المخنوق ، ولسانها المتلعجج .

فامسيت من جراء حالتها تلك شديدة التشاؤم . لا اخال مستقبلي الا متجيباً ، ولا تريني البصيرة خطيبي الا قتيلاً او مفقوداً . وسرعان ما صح تشاؤمي وتنبؤات بصيرتي ، فقد اعلنت الحكومة اسمه بين المفقودين بتاريخ عشرين الجاري .

ليست هذه هي المرة الاولى التي تستيق البصيرة الحوادث، وتتنبأ عنها. فلها في تاريخ الانسان الهامات عجيبة، ورؤى غريبة لا ندرك لها كنهها.

لقد هزّني هذه الصدمة العنيفة، فبقيت بضعة ايام شاردة الذهن، مروعة القلب، لا اعني، كأنني جماد يتحرك بلا رشد، او معتوه يترجح بلا قصد. غير انني لم البث طويلاً حتى تاب اليّ رشدي، وعادت البصيرة عن جديد تشع في جوانب نفسي، وتبدّد عني هذا الكابوس المرهق. وهي التي اهتمني بوجوب مراجعة تحرير خطيبي الاخير بغية العمل بمقتضى رغباته.

فأعدت تلاوته عشرات المرات، وفي كل مرة كانت تستوقفني امنيته التي اوعز اليّ بها في رسالته الاخيرة. وهي توضح بجلاء تام هدفه المنشود، بان اخدم الانسانية الجريح متطوعة في الصليب الاحمر. فصممت على التطوع في الحال، واعلمت والذي بذلك. فنصحاني بالعدول عن عزمي، فلم انتصح. ولم يقو ابي ان يغيّر ذرة من ارادتي، على فرط ما بذل من وسائل العطف والارشاد. ولم تتمكن امي من ذلك ايضاً، على كثرة ما ذرفت من الدموع وضحت من التوسلات. فذهبت في اليوم الثالث والعشرين من آب الى الدائرة المختصة بالصليب الاحمر وتطوعت فيها، مظهرة لاوليائها رغبتى الحارة بالسفر عاجلاً الى اوروبا عن طريق الجو، او في اول باخرة تمخر اليها. لأنني مزمنة ان ارافق الجنود في الحرب لمساعدة جرحاهم.

سقوط باريس

وفي اليوم الرابع والعشرين من ذات الشهر اعلن الحلفاء سقوط باريس . وكان للجيش الداخلي الفرنسي اليد الطولى في تحريرها . فاستقبل العالم الحليف هذا النبأ السار بمجالي الفرح والابتهاج . وأقيمت معالم الزينة واقواس النصر في مختلف ارجاء الكون . ولبست كندا حلة العيد من اقصاها الى اقصاها . وازدهت مدنها ببهارج الاحتفالات البالغة منتهى الأبهة والفخامة .

وقد بدت مدينة مونتريال كأنها عروس مجلوة ، تتدفق نوراً وتتضوع عطوراً ، وترتدي حلة قشبية تتلألأ بالالوان الزاهية بشارات الاعلام الحليفة المنتصبة فوق الابراج والمنازل ، وعلى شرفاتها ونوافذها . وهي تتماوج فوق رؤوس الجماهير المترصة في الساحات والشوارع والبالغة هتافاتها عنان السماء .

لم ابرح متلي خلال هذا العيد ، بل كنت اطل على شرفته بين الفينة والفينة لآحيي الجوع الفقيرة الهازجة باناشيد الظفر وموسيقى النصر ، واهتف متظاهرة بمشاركتها في الهرج والمرج . غير انني كنت في دخائل نفسي ، لا افكر الا في خطيبي المفقود متسائلة . آحي هو ام ميت ؟ امعدم ام غير معدم ؟ اعليل ام غير عليل ؟ ألاجى ؟ الى احد

المنازل والاكواح، ام مختبئ في بعض الكهوف والمغاور؟ ام تائه في
جبال الالب يتنقل طاوياً بين عواصف الثلج والزمهرير، ليس له ما يسند
رأسه ويسد رمقه.

وكادت هذه الهواجس المتراكمة على تخفق انفاسي وتعمي بصري
وبصريتي، لولا بريق امل بعيد تراءى لي مومضاً في دخائل وجداني
الحالك ايامضة الجباب في الليل البهيم.

وما كان هذا البريق المتأوج في دخائل نفسي سوى وميض مبرة
الصليب الاحمر التي ارادني خطيبي في خدمتها. فعملت كلما بوسعي
لاتمام رغبته. ولم انتز عن ملاحقة تطوعي لدي اولياء الامر حتى افزت
به في اوائل ايلول.

ولما دخلت في سلك الصليب الاحمر، وقطعت ساعدي بشارته الحمراء
شعرت كأن جلوداً يتزحزح عن صدري ويفتح امام رئي مسارب
التنفس.

لم انتظر طويلاً حتى تبلّغت امر السفر الى اوروبا وكنت اكثر ما
اتوهم واخاف، موقف وداع والدي الذين عشت وحيدة في حجرهما
الابوي، ارقزق بين جناحيهما، وارفوف في كنف منزلتهما، فاملاً جوّة
بهجة، واغمر جوائبه آملاً.

فانا وحدي بهجة هذا البيت، وامل ساكنيه. فكيف لا يمسي بعدي
خاوياً من كل مرج، خالياً من كل رجاء. هذا ما جعلني افكر بالسفر على
غرة لا تلافى حر الوداع، غير ان عاطفتي البنوية ابت على ذلك.
وكانت ساعة رحيلي عن ابوي جد مؤثرة؛ بيد انها لم تكن مفاجئة

كما كنت اتوقع. فقد لمست في قلب امي بعض دلائل الصبر على الرغم
من شدة تقرح جفونها، وتجهّم غضونها. فزودتني بقبلات حارة وبكلمات
كلها عطف واستسلام لمشية الله.

اما ابي، فقد ودّعني مالكا اعصابه دون محجريه، حيث كانت
قطرات الدمع تتسرّب من بين جفونه على الرغم منه، وقد اسمعني بضع
الفاظ كلها اقدام وكلها حياة.

ولم انس ما قاله لي: لم ارزق غيرك وليداً يزود عن حياض الوطن.
اذهي بامان الله، ضمدي جراحه كأنثى، واشحذي سلاحه كرجل.

عبر الاوقيانوس

اجرت بنا السفينة قبيل الفجر مكتظة بالجنود والاعتدة، وكنا على متنها خمس اناث لا غير، نرتدي البزة العسكرية ونتميز بشارة الصليب الاحمر المطوّقة قبعاتنا والبارزة على صدورنا واكمامنا.

ولما بلغنا عرض البحر وجلنا بأبصارنا في غماره الفسيحة، تفقّد ما امامنا وما ورائنا، الفينا المركب الذي يقلّنا يتوسط القافلة المتجهة شطر العالم القديم، وهي مؤلفة من عدة سفن تحمل خيرة شبابنا الى ساحة الحرب، وتخترّبهم مخفورة بالمدركات التي ترافقها وتحرس طريقها، ومعززة بأسراب الطائرات التي تتهاذى فوقها وتتناوح متأهبة لحمايتها من كل طارىء.

وكان الدخان الكثيف يتصاعد من اجواف الماخرات ويتعالى في الفضاء منتصباً كالعمد التي تكاد لا تستوي في الجو حتى تتناثر اجزاؤها، وتتشابك حلقاتها، فتدافع وتتجاذب، وهي تتلبد حيناً وتتمدد احياناً منبسطة فوق رؤوسنا، كأنها يحيط هائل تدافع امواجه وتتجاذب فوق المحيط الذي نشق عبابه

ولكن سرعان ما ألفت عيوننا هذا الجو الرهيب، فأمسينا بعد قليل، لا نشعر بغرابة منظره وفداحة وحشته. وبدأ الجنود في البادرة،

يصرفون اوقاتهم بين الجد واللعب. يطالعون حيناً، ويتلهون بالعزف والغناء احياناً، ويختلفون الى الرقص ومبادلة الاسمار، ويتفاكهون بالنوادر وملاح الاخبار، كأنهم ذاهبون الى سرادق العرس لا الى ساحات الرمس.

لقد كانوا فتياًنا في ريق الصبا تغلي دماؤهم الزكية بلهيب الفتوة المندفعة، وحر الشباب الشائر. فلا جناح عليهم اذا استخفوا بالموت، وازدروا الحياة، واعتبروا الارماس في ساحة الجهاد، اعراسا خالدة تعبق باطايب الحور والطور، لا ارماساً تنطوي على جثث تتاكلها الديدان ويلعب بها الافعوان، كارماس الذين يقضون حتف انوفهم.

شبابٌ وثناب، وحماسة جارفة كانا يحفزناهم الى موارد الموت، ويشيران فيهم الحمية الى اقصى حدودها. فيبدون في هرجهم ومرجهم كالبراكين الشائرة المتحفزة للانفجار.

وظالما شعرت وانا بين هؤلاء الجنود المستميتين، كأنني وسط البراكين الفاغرة افواها بالسنة الناروقذائف الحمم. وكنت على الغالب اشار كهم بالحماسة والاندفاع الى ما وراء حدود العقل. فاجن جنونهم، واثور ثورتهم على مضرمي نار هذه الحرب الذين اقصوا الابناء عن آباءهم وامهاتهم، وابعدوا الازواج عن حليلاتهم واولادهم، وسلخوا الفتيان عن خطيباتهم، فاشكلوا، ورملوا، ويتموا، وقطعوا نياط القلوب، ووشائج الرجا.

لكنني في بعض الاحيان كنت املك روعي، واخفف من حدة اعصابي، فاتنقل بين الجنود متفرسة في شبابهم الغض واساريرهم الوهاجة كالجر. واتأمل فيهم متسائلة: من منهم يا ترى سيخدمه الحظ ويعود

الى وطنه سليماً حاملاً اكليل الغار، ومن منهم سيلقى حتفه غريقاً في
لجج اليم او حريقاً في لهب القاذفات، او قتيلاً مضرّ جأ بين سنابك الخيل
وفواتك الدبابات !

من منهم يؤوب الى عشه، فيتمتع بخنان والديه، وينصت الى تغريد
كناريه وزقزقة فراخه !

من منهم يرجع الى مهبط احلامه ومسرح غرامه — الى فتاته
التي تغمر قلبه باخلص الحب، وتعمر دماغه باشهى الذكريات .
هكذا كنت افكر وانا مستلقية على فراشي في الهزيع الاول من
الليل، حينما فوجئت بدوي صفارات الانذار وقصف المدافع، ولعلعة
القنابل، وصخب البحارة الذين اسرعوا قبل الجميع الى تفقد الباخرة
وتدبر اجتنابها الخطر .

فارتديت ثيابي بلمحة البصر، وكنت من الاولين الذين صعدوا
الى سطحها . وهي تعلو وتهبط في بحر هائج يزمجر صرصره، وتصخب
انواؤه، ويسطع ليله الحالك ببروق القذائف النارية التي تتساقط عليه
من كل جانب . فيبدو وهج نيرانها فوق متناول البصر، وقصف رعوها
فوق احتمال الاذان .

ورأيت الجنود بسلاحهم التسام مرتكزين في انحاء الباخرة وهم
مستعدون لكل طارىء . ونحن الفتيات كنا هناك اتبع لهم من ظلمهم .
لم اتكلف سؤالاً عما جرى، لاني منذ صعودي على متن الباخرة
عرفت من لفظ البحارة : ان غواصة جرمانية اجهزت على احدى سفننا
الامامية فالتفتها . فأصلتها مدرعاتنا وطائراتنا النار . غير اني لم اعلم

في الحال هل غرقت الباخرة في عبر المحيط، وهل نجا بحارتها والجنود الذين على متنها؟ وهل اجهزت المدرعات والطائرات على الغواصة المعتدية ام نجت من الهلاك وتوارت في قعر اليمه؟ ...

وبعد هنيهة توقفت طلقات المدافع والقنابل، وبدأت تظهر عن بعد قوارب النجاة ممتلئة بالجنود والبحارة، ثم شرعت تتقدم نحو السفن وتتوزع فيها . فاصابنا منها ثلاثة لا غير تحمل مائة جندي، صعدوا كلهم الى باخرتنا . بعضهم في لباسهم العسكري، وبعضهم في ثياب النوم، يندون بالماء وتصطك اسنانهم من البرد، وترتجف اعصابهم من شدة البلب . فنحوا حالاً ما يلزمهم من الالبسة والاغذية واسباب الدف .

ثم اخذنا نسألهم عما جرى لهم . فقال لي احدهم : وهو فقي لم يتجاوز العشرين ربيعاً : كنت في بهو المركب العب « بالبريدج » وبعض الرفاق حينما فوجئنا بقصف المدافع على باخرتنا . فشلت محركاتها في الحال، واندلعت النار في مستودع وقودها، فعمّ اللهب مختلف انحاء الباخرة على الرغم مما استعمل من قوة المكافحة وبذل الجهود لاختادها . فهلك بعض البحارة والجنود قتلاً وحريقاً، وجرح بعضهم . غير اني لم اتمكن من معرفة عددهم بالضبط .

فطير الربان الخبر باللاسلكي الى مجموع القافلة وامر باحضار قوارب النجاة وانزال الجرحى اليها اولاً، ثم الجنود فالبحارة . وما فاض عن محمول القوارب غاص في البحر سباحة الى اقرب السفن .

ولا أدري هل نجا السابجون كلهم او غرق بعضهم . ولم نتمكن ايضاً من تخلص شي من الامتعة والأعتدة لهول اللهب، وتفاقم

الخطر على ارواحنا . وقال جندي آخر : وهو يتأوه من الم الحروق البادية على وجهه وعلى ساعديه ، انه لمشهد رهيب للغاية مشهد تدمير الباخرة واحتراقها . فرأيت بام العين بعض رفاقي الجنود تتطاير اجسامهم شظايا من شرر المدافع ، وبعضهم تتأكلمهم النيران وتذريهم رماداً يمتزج بسرعة هائلة برماد مواد الباخرة المحترقة التي تخاطفها اللهب من كل جانب ... واردف ان نجاتي من الموت وانا في قلب جحيم الموت الاعجوبة من الاعاجيب أعزوه الى طهارة قلب امي ورضا الله عليها .

لم اسمع من افواه البحارة الذين صعدوا اليها ، غير وصف الفاجعة الاليمة وفضاعة مآسيها . فلم يتمكن احد منهم من تقدير عدد الضحايا ولا من معرفة ما حل بالغواصة العدو .

وبعد قليل اعلنت الاميرالية عدد الجرحى والقلى والمفقودين في هذه الكارثة ، فبلغوا ثمانين قتيلاً ومفقوداً ومائة وعشرين جريحاً . وطأنت انها تأرت . من لصة البحار ومن قرصانها فحتمها ومحتهم من الوجود . صرفنا اليومين الاخيرين في الاوقيانوس ، لا نتحدث الا عن هذه الواقعة ، غير ان جنودنا البواسل كانوا يعدونها بمثابة مفاجأة تافهة بالنسبة الى فداحة المفاجئات التي تنتظرهم عندما يقتحمون جبهات الحرب ، وينازلون الاعداء في ساحاتها الدامية المكدسة باشلاء القلى وآهات الجرحى والمحرجين . فهم يترقبون النضال بصدور فولاذية بين طوفان من هزيم القنابل ورعود المدافع ، وبين براكين من نيران القذائف وجحيم المتفجرات .

اما انا ورفيقي فبقينا مذعورات من هول تلك الكارثة الى ان

بلغنا ثغر بور تسموث الانكليزي. وكنت في كل لحظةٍ تخيل الغواصات
الجرمانية تباغتنا من مطاوي اللجج، وتقذف بنا وبباخرتنا في قاع البحر.
فامسيت من جراء ذلك، شديدة التوتر، لا اسمع صوتاً او جلبة
او وقع اقدام حتى اتوهمه نذيراً يحذر البحارة والجنود من خطر مداهم.
فصرفت الليلتين الأخيرتين نائمة قائمة، اكاد لا استلقي على فراشي
حتى انهض منه مبغوته الى مماشي الباخرة اتفقدها وانا محجرة العينين
مرعوبة القلب.

وفي سحابة النهار، كنت اينما كنت، على متن الباخرة او في داخل
غرفها وابائها، اتوجس خيفةً من أوهى الاصوات وارتعد فرقاً من
اقل الجلبات.

فشعر بي احد الضباط فقال لي: انت ذاهبة الى الحرب لتفقد
الجرحي وانقاذهم من جحيم الهيجاء، فاذا لم تحملي قلباً صلباً كقلوب
الابطال، وشعوراً مرهفاً كشعور الأمهات لن تنجحي في مهمتك هذه
التي ورطت نفسك فيها.

فاحرى بك ان تعودى من حيث اتيت اذا لم تتمكني من التغلب
على ضعفك وتوتر اعصابك.

فزادني صراحته الجافة في النصح تأثراً، غير انني لم البث ان ملاكت
روعي، عندما فطنت انني في حضرة ضابط تعود ان يكون أمراً او
مأموراً. فأجبتة بلطف: ان فتاة مثلي لم تتجشم ركوب الأهوال
والمخاطر، ولم تلاق في حياتها غير دغدغة الأم وحنان الأب، لمعدورة عما
يبدر منها من علائم الجزع والخوف في اول بادرة من بوادر الحرب...

سَأْتَمُرُّنْ عَلَى الْبَطُولَةِ فِي مَعَامِعِ الْوَغَى . وَالْبَطُولَةُ صِفَةٌ كَثِيرُهَا مِنْ
الْصِّفَاتِ تُكَتْسَبُ بِالْمُرَانِ .

وَبَدَأْتُ فَعَلًا مِنْذُ تِلْكَ السَّاعَةِ أَرُوضُ نَفْسِي عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ ،
كَابْحَةِ جَمَاحِ أَصْصَابِي كُلَّمَا اسْتَوْلَى عَلَيَّ الذُّعْرُ ، وَمَلَكَتْنِي قَشْعَرِيَّةُ الْخَوْفِ
مِنْ تَفَاقُمِ كَوَارِثِ الْحَرْبِ وَفِدَا حَةِ فُؤَادِهَا .

في بريطانيا العظمى

وطئنا ارض الوطن الامّ حول الغروب، وذهبنا توّأمن الميناء الى المحطّة، فاقبلنا القطار الحديدي الى لندن عاصمة بريطانيا العظمى وقاعدة امبراطوريتها التي لا تغيب عنها الشمس

بلغنا ضواحي عاصمة العواصم دون ان يحدث لنا اي حادث في الطريق. غير ان شعوري باهوال هذه الحرب بدأت تتجسّم في ذهني، لكثرة ما كنت اشاهد من الدمار والحراب، من نوافذ القطار، في المدن والقرى التي مررنا بها.

وفي الضواحي توقف القطار فجأة ثم لم نلبث حتى هدر في آذاننا دوي طائرات الجرمان المغيرة، فالفيناها تلقي نيران حممها وجحيم متفجراتها على تلك البقعة الآهلة في الارض الانكليزية، متلفة الضرع والزرع ومطيحة المباني التي تصيبها بقنابلها، تدكّها دكاً، وكانت السنة النار تندلع من المنازل المهدمّة وتنتشر في تلك الارحاء انتشاراً مروّعاً، حتى بتنا نخشى تفاقمها حول قطارنا اكثر من تفاقم القنابل.

وفي الحال دوت بطاريات المدافع المضادة للطائرات، فنجتنا من القانصات المغيرة واجلتها عن سماء بريطانيا بعد ان اسقطت بعضها، حيث كنا نراها تهبط مشتعلة على الارض كما تهبط النيازك. واسرعت

كتائب الجيش ومفرزات الاسعاف تكافح النيران وتنقذ الجرحى من بين الأنقاض بهمة قعساء وجهاد دونه جهاد الجبابة.

لقد شعرت بالخوف عند وقوع هذه الغارة المفجعة التي كانت اكثر فداحة واعظم هولاً من غارة غواصة العدو في الاوقيانس . على اني في هذه المرة لم اخسر رباطة جأشي كما خسرتها في البحر .

اما القطار فنجا من وابل القنابل المنصبة حوله كمن ينجو من اشدق الموت ، وعاد سيره الى لندن ، فبلغناها سالمين ، وتوزعنا في ثكناتها منتظرين امر الاجبار الى فرنسا .

بقيت عشرين يوماً اتنقل في جوانب هذه المدينة دون ان اعمل شيئاً يستحق الذكر . فكنت قليلاً ما اختلف الى المستشفيات للتمرّن ، ونادراً ما كنت اساعد بعض جرحى الغارات في الشوارع .

وقد آلمني حقاً وراعني نفساً وجسداً ، مشهد الخراب الهائل الذي لحق بلندن من الغارات الجوية التي كانت تتعقبها بدون انقطاع .

في هذه المدة القصيرة التي صرفتها في لندن ، رأيت بام العين عدة غارات تنقض عليها من وراء السحب ، وتنفذها باطنان القنابل والمتفجرات فتزيد بها خسارة النفوس وتخريباً بمختلف الاحياء والشوارع .

فكم من قصور امست اطلالاً ، وكم من احياء اضرحت مكدسة بالانقاض . وكم من شبان وشيب اردتهم الغارات الجوية في الشوارع ، وكم من رجال ونساء مزقتم اشلاء في داخل مكاتبهم ودوائر اعمالهم . وكم من طلاب وطالبات لقوا حتفهم في المدارس والجامعات ، بين اوراقهم وكتبهم . وكم من شيوخ وامهات واطفال زهقت ارواحهم

تحت انقاض دورهم وبين ظلال حدائقهم وبساتينهم .
ومما ادهشني حقاً وعلمني الشجاعة والصبر، رباطة جأش الشعب
الانكليزي الذي ابصرته في ابان الغارات يختلف الى الملاجي، هادي،
البال ساكن الاعصاب .

نساء ورجال، وفتيان وفتيات، واطفال على مناكب آبائهم وامهاتهم
وشيوخ متكئون على عكازاتهم وسواعد ذويهم، كلهم عند صفارة
الخطر يتجهون الى اقرب ملجأ بكل انتظام دون شغب وضوضاء، ودون
رعب او تزامح بالمناكب . فهم يبدوون كأنهم ذاهبون الى هيكل من
الهياكل، لا هاربون من وجه الخطر المحقق بهم .

والملاجي، في لندن وافرة ومشيدة على الغالب تحت الارض،
ومعدة اعداداً وافياً بالمرام، تتوفر فيها الراحة، وتسطع بالنور الكهربائي
ولا تخلو من الماء وبعض الغذاء . وهي تحتوي ايضاً الادوات الصحية
اللازمة للاسعاف عند حلول الطوارئ .

وقد تسنى لي ان ان ازور بعض هذه الملاجي، الفسيحة التي اوجدتها
دواعي الحرب الحديثة في اوروبا. فدخلت بعضها في ساعات الهدوء
والسكينة على سبيل الاستطلاع والدرس، كما ولجتها مرغمة في الظروف
العصية - ظروف الغارات الهائلة التي كانت تظهر بغتة فوق سماء لندن،
وتقذف نيرانها الجهنمية على الشكنات والمصانع وعلى المستشفيات
والمنازل دون استثناء .

ان ازل ملجأ دخلته الفيتة لأول وهلة شيئاً جديداً لم تألفه عيناى من
قبل . لأن كندا لم تحتج في هذه الحرب الى انشاء امثال هذه الملاجي

في ارجاء مدنها واريافها. فهي بموقعها الجغرافي محصنةً بالاوقيانسين عن مرمى قاذصات الاعداء.

لقد دخلت ملجأً خلال احدى الغارات التي طال امدها، وكان بقربي شيخ طاعن اربى على الثمانين، فعرفته بنفسه ثم قلت له. ان الشعب الانكليزي لشعب جبّار حقاً، لأنّه يتحمل بشجاعة وصبر امثال هذه الغارات المتواصلة والفواجع المتراكمة. فاجابني بلهجة لندنية لا تخلو من الالباء والكبرياء اللذين يسريان في دماء هذا الشعب العريق. ان هذه الغارات التي تستعظمينها اليوم لا تُعدّ شيئاً بالنسبة الى ما قاسيناه من امثالها في العام الماضي. اننا نحن معشر الانكليز لا نفقد زمام اعصابنا مهما تشدد علينا الالهوال وتتراكم الفواجع، لأننا نملك خلقاً بارداً كبرودة الثلج، صلباً كصلابة الفولاذ.

وقالت لي امرأة بجانبه. كنّا في باديء الامر نشعر بالذعر كلّما دوت صفارات الانذار، وداهمتنا الطائرات المغيرة بنيرانها الجهنمية، اما اليوم فقد اعتدنا تحمّل ويلاتها، فامست في نظرنا شيئاً مألوفاً لا يربعنا ولا يخيفنا.

وكان في الملجأ احد الطيارين الانكليز يسمع حديثنا فتنتطح وقال : لم نخش بطش الالمان وجبروتهم ونحن عزل. لقد حاربناهم وحدنا عاماً كاملاً وصمدنا في وجوههم صموداً ادهش العالم بأسره، فكيف نخشاهم اليوم، وكفتنا ترجيح كفتهم في العدد والمعدّات في مجمل ميادين الحرب. ان الجزر البريطانية التي كانت على توالي الاجيال سيفاً مسلواً فوق رقاب الفاتحين ستظل هكذا فوق رقاب الالمان وحلفائهم.

فشارت نائرة احد الصبيان الجالس بقربنا عند استماعه كلام الضابط ، وقال له بلهجة الواثق بنفسه : غدا اصبح مثلك طياراً مغامراً ، ألوي عنان طائرتي فوق برلين ، واهدم بيوتها كما هدمت بيوتنا ، واثار من رجالها المتوحشين الذين اغاروا علينا بطائراتهم ونكلوا بنا في مدارسنا وفي عقر دورنا .

لقد لمست لمس اليد في الفترة القصيرة التي صرفتها في لندن ، نفسية الشعب الانكليزي نساء ورجالا واحداً . فالفيتهم على اختلاف اعمارهم وطبقاتهم ، كلهم يلتهبون وطنيةً ويؤمنون بالنصر ايماناً لا يتزعزع ، كمايمانهم بديمقراطيتهم وعبقريه رجالهم . وهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن الله معهم في الملمات يشد أزهرهم ويسد دخاطهم .

وشعرت بشدة التقنين منذ وطئت قدماي الارض الانكليزية ، حيث التجأت الحكومة الى سن قوانين الاعاشة طوال مدة الحرب ، ونهت الشعب عن التفريط بالمواد الغذائية والالبسة على اختلاف انواعها .

في فرنسا

وفي اوائل تشرين الاول عام ١٩٤٤ تلقيت امرأ بالسفر الى فرنسا .
فاقلمتُ بجزيرة أليها في باخرة مكتظة بالجنود . بينهم كتيبة كندية ساعدني
الحظ ان اتعرف الى بعض افرادها في الساعات القلائل التي كنا خلالها
نجتاز بحر المانش الذي يفصل الوطن الأم عن فرنسا .

فتبينت من خلال احاديثهم ، انهم جاؤوا من العالم الجديد الى العالم
القديم في نفس القافلة التي جئت فيها .

فكنت جداً مذهولة برؤية نخبة من ابطال بلادي تجنّدوا بملء اختيارهم
للدود عن اميراطوريتنا المهددة ، ولدفاع عن الشعوب المهضومة حقوقها
وحرّياتها .

بلغنا ثغر شربورغ الفرنسي بكل اطمئنان ، غير اننا لم نلبث فيه
سوى بضع ساعات صرفناها متجولين في بعض احيائه القريبة من الميناء .
فالفينا معظم ابنتها خراباً وارصفة شوارعها مكدّسة بالانقاض .

وكان الفرنسيون والفرنسيات يخرجون من اقبية منازلهم المهتمة ،
ويهتفون لنا هتافاً شديداً . وصغارهم كانوا يعتلون الانقاض ، ويهزجون
بالاناشيد فوقها ، تهليلاً بمقدمنا . وصغيراتهم ، كنّ يتراكن بين تلك
الخرائب متسابقات ليرشقن بالعطور والزهور . وكلهم تتلألا وجوهم

يبشائر الامل الواضح، وتترقرق عيونهم بدموع الفرح، لخلاصهم من جور الاحتلال النازي الذي أخذ بخناقمهم وحملهم من المآسي ما لا تحمله الرواسي .

وقفت قليلا على اطلال احد المنازل اتأمل هول فظائع الحرب . وبيننا انا مستغرقة في هذا التفكير ، تقدمت مني فتاة صغيرة ملائكية الروح ، سماوية العينين ، وردية الوجه ، شقراوية الملامح ، لا تتجاوز عامها العاشر ، ورجتني ان اتقبل منها طاقة من النفسج جمعتها من بين خرائب منزلها المهدم . فتناولتها شاكرة لها رقة عاطفتها ، بفرنسيّتي الكندية التي رأيتها لا تفرق عن فرنسيّة الفرنسيين الا بمقاطع بعض الكلم ، ومخارج بعض الالفاظ . ولا تتميز عنها الا بمقدار ما تتميز اللهجات الاقليمية بعضها عن بعض في الوطن الواحد .

فابرق وجهها لما رأتهني اتكلم لغتها بلهجة لا رطانة فيها . فسألتني أفروسيّة انت ؟ فاجبتها لا . انا كندية المولد والوطن ، امت الى فرنسا بصلتين غير منفصمتين — صلة اللغة وصلة الارحام القديمة .

ثم سألتها عن حالها : فدمعت عينها في الحال وقالت : انا يتيمة الاب والام ، قُتل والدي في معركة فرنسا ، وفقد اخي في ضواحي باريس ، وانهار بيتنا الابوي في احدى الليالي من وطأة القذائف التي تساقطت عليه ، فمات امي تحت انقاضه . ولا اعلم كيف نجوت بنفسي من انياب الموت ، حيث كنت بقربها ساعة الانهيار .

اني لمؤمنّة بانه حصل ذلك باعجوبة من عجائب القديسة تاريز التي كنت في تلك الساعة الرهيبة التمس منها العون .

فكفلتني عمتي العجوز واحاطتني بعنايتها . وهي ايضاً فُجعت
بوحيدها في هذه الحرب ، وتداعى بيتها الجميل الذي كانت تُحسد عليه .
ولم يبق منه سوى زريبة لما وانا لا تصلح للدواجن .

فانهمرت دموعي عفواً من شدة التأثر ، وهممتُ ان اضع يجيها بعض
الدرهيات ، فأبّت ذلك حياء وخجلاً قائلة : ان عمّتها تحنو عليها وتؤمّن
لها حاجاتها الضرورية وفقاً لقوانين التقنين السارية في وطنها .

فاظهرت لها رغبتي بزيارة عمّتها وسألتها : أبعد بيتها من هنا ؟
فاجابت لا . هو في الشارع الملاصق لهذا الشارع . ومشت امامي اليه .

لم انظر هناك بيتاً بل انقاضاً مكدسة بعضها فوق بعض ، واعمد
متداعية ، واحجاراً متراكمة ، وبلاطاً متناثراً في فناء حديقة كبيرة
تهدم سورها ، وامسى ركاماً لماوى الجرذان والزواحف .

وتدّل هذه الاطلال والبقايا ، على انها كانت قصرأ جميلاً ، لكثرة ما
شاهدت فيها من الحجارة المقرنصة والبلاط الفاخر ، والاعمدة الدقيقة
الصنع . فقلت للفتاة وانا اتقصّى تلك الخرائب : حقا كان لعمتك منزل
تُحسد عليه

ثم امسكت الفتاة بيدي ودارت بي خلف الانقاض وانزلتني دهليزاً
اوصلني الى احد الاقبية التي بقي وحده سليماً في هذا البيت الكبير .
فرايت عمّتها جالسة الى الموقد تشعل فيه حطام ابواب قصرها
للتدفئة وتهيئة الطعام .

فقدمتني اليها قائلة : هذه سيدة كندية من مبرة الصليب الاحمر
رايتها في طريقي ، فهديتها باقة من البنفسج عربون شكر الفرنسيات

الصغيرات المنقذين . وقد شأنت ان تتعرف اليك فجئتُك بها . وهي تتكلم الفرنسية مثلنا يا عمّاه .

فتأهّلت بي العجوز واجلستني قريبا حيال المدفأة على احدى الوسائد القديمة ، وقالت لي وهي مشيرة اليها : لم يبق لي مق اثاثي ورياشي غير محتويات هذه الغرفة الخفية فعذراً .

لقد كانت مستودعاً للفحم فحوّلتها ملجأً خلال هذه الحرب و كنت فيها عند وقوع تلك الغارة المشؤومة التي طاحت بالبيت وبكامل اثاثه ورياشه .

ثم اردفت بكل هدوء ورصانة : لقد خسرت داري ووحيد ديارى في هذه الحرب . وفُجعت بأخي وأمرته ايضاً . ولم يبق لي على قيد الحياة غير ابنته هذه التي جاءت بك الي . وهي البقية الباقية من اسرتينا العريقتين في هذه المدينة .

فقلت لها : انك لجبارة حقاً باحتمال رزئك المزدوج الذي لا يعوّض فاجابت : وقد بدت بسمة الالباء على وجهها المتجعّد ، عوطني الله عن فواجعي بنجاة فرنسا من مخالب « البوش » .

فاكبرت عاطفة هذه العجوز نحو وطنها ، وقلت في نفسي : ان بلاداً تنجب امثالها ان تموت .

لقد علّمتني هذه العجوز الفرنسية امثولتين لن انساها في حياتي — امثولة تحمّل افطع التضحيات في سبيل الوطن ، وامثولة الصبر على اوجع المكاره .

رايتها على الرغم من ثكلها ، وترملها ، وخراب منزلها ، ومعيشتها

المقترة في مستودع الفحم، ابنة النفس، قاعة القلب، جبارة العواطف،
كانها لم تكن يوماً صاحبة قصر منيف، تعيش في رحابه بسعة وبذخ
محفوظة بخدمها ومشمولة بعطف زوجها وبرّ ولدها.

فابدت لها استعظامي لرباطة جأشها، واستكباري رمز صبرها
وقناعتها. فقالت: لم التحمل في سبيل وطني غير الفاقة والصبر على
الفواجع. فلم اذد عنه كما ذادت الفرنسيات في جيشنا الداخلي الذي لم
ينثن عن محاربة «البوش» بروح فرنسية تأبى الضم والخنوع، وتؤثر
الموت عليها.

فانا عجوز متهدمة الاعصاب كما تريني، لا تحملي الرجلان للنضال
ولا تطيعني اليدان للقتال، لا تمكّن من القيام بنفسي بواجب الدفاع عن
وطني المفقدي.

خرجت من زيارة تلك العجوز أصلب قلباً على تحمل الطوارئ.
فقد كانت لي حقا خير قدوة اتدي بها في الشجاعة والصبر على صروف
الزمان.

في باريس

جئت باريس عاصمة النور في سيارات الجيش . فاجتزت طريقا ممتلئة جوانبها بالأسلاك الشائكة، وبحطام الآلات الحربية المتنوعة . وابتصرت على مرمى الطرف حقولا باثرة، وضياعا خاوية، ومدنا تكدست ركاما . مما يدل على ان الحرب كانت هائلة في ذلك القطاع من شمالي فرنسا .

اما باريس فرأيتها احسن بكثير مما كنت اتوقع ان اراها . فلم يلحقها الخراب الا يسيرا بالنسبة الى غيرها من المدن التي كانت مثلها ميدانا للحرب .

فعظم دورها وقصورها الاثرية بقيت سليمة من كل اذى، واكثر تحفها الفنية كانت مخبأة وبعيدة عن متناول ايدي الالمان ومرمى قنابلهم . غير انهم استطاعوا ان يقضوا بطائراتهم على بعض الآثار الرائعة في حنايا باريس ويستولوا في فترة احتلالهم لها على بعض كنوزها القيمة التي لا تقدر بثمن .

كانت باريس عندما دخلتها معقل جيوش الحلفاء، تذخر بالكتائب والفيالق من كل قارة من القارات الخمس، ومن كل امة ولون من امم البشر والوانهم .

وتعج شوارعها وجاداتها بقوافل المصقحات والدبابات، وترعد
سماؤها بأزيز القانصات والطائرات .

فلم تخل ربيعة من رياضاتها من قعقة الجنود وقرقة عتادهم .
مفوزات من الجيش لا يحصى عددها، رأيتهما تنتقل في رحابها غادية رائحة،
داخلة خارجة على الدوام .

فخلت نفسي: انني في قلب المعامع مع ان المعارك الحربية كانت
قد تخطت باريس كثيراً وبلغت معاقل البلجيك والفوج، وضواحي
متروبلفور ومشارف عاصمة الازاس .

لم امكث في باريس سوى بضعة اسابيع قضيتها متمرنة على
اساليب التضميم في مستشفيات الجيش .

فرايت هناك مئات الجرحى المختلفي الجنس والوطن والدين
متجاورين في اسرتهم، متساوين في المعاملة وطرق المعالجة . لا فرق بين
الاشقر الساوي العين، والخنطي المعسول اللحاظ، والاصفر المشقوق البصر،
والاسمر الكحيل الطرف، والزنجي الغليظ الشفتين والانف، كلهم
واحد في نظر ملاك الطب وملائكة التمريض، تجمعهم الطينة البشرية
وتربطهم برباط الاخوة الانسانية التي الفيتها هناك متماسكة العرى،
لا يفصمها تفرق الالوان، ولا تنوع الأديان والاطوان .

وقفت امام جريح كندي قد متني اليه احدى الممرضات قائلة . هذه
ابنة بلادك عبرت الاطلسي لتخدم جرحى الحرب بكل ما أوتيت من
علم واختبار ومحبة وعطف .

فرمقته بعين يغمرها الدمع، ووضعت يدي على جبينه

المحوم امسح عنه عرق الشدة ، ثم سألته عن حاله فقال وهو يتفرس في ملاحى : جرحت في معركة النور مندي جرحاً بليغاً في الخاصرة كاد يصرم حياتي . اما الآن فقد التأم جرحي عندما ابصرت وجه بلادي يشع في وجهك الجميل ، وملاح شقيقتي الوحيدة ترسم على محياك الاسيل ، وحنو الوالدة وعطفها يترقرقان دموعاً على سيمائك الملائكية .

ثم طفق يبكي عند ذكرى وطنه واحب الناس لديه .
فعطفت عليه بكل جوارحي ، واخذت الامس برفق شعراته الذهبية المنتثرة على مفرقيه ، واداعبها باصابعي مداعبة الالم لولدها ، والاخت لاخيها . فانس بي واستبشر خيراً بوجودي ، فلمحت بريق انسه مشعاً في ناظريه ، يتلألأ ممتزجاً بقطرات دموعه . فسألته عن مسقط رأسه ، وعمن يعرف من رفاقه الكنديين ، فذكر لي ، ما خلا اسمه ، عشرات الاسماء ، لم اقع بينها على اسم خطيبي . ثم اردف انه من مدينة كباك ، وانه يفخر بمواطنة البواسل الذين ابلوا خير البلاء في هذه الحرب . ثم شهق يترحم على الذين سقطوا صرعى في ميادينها فشاركته من صميم القلب بالتأوهات والمراحم .

.

هذا اول كندي جريح رمقته عيني ، وضمت جراحه يدي ، وآسته نفسي . وبقيت اتردد عليه في المستشفى طيلة اقامتي القصيرة في باريس .
عندما اجيب طلبي بالذهاب الى جبهة الفوج جمته مودعة ، فرأيتة وقد زالت عنه الحمى وتماثل للشفاء . فنهأته ببرئته ، دون ان انكأ جراحه

غِبَّ التَّائِبُهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَشْتَمُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْوَدَاعِ.
لمست في باريس حيويةً في الشعب الفرنسي لا تقلّ عن حيوية
حلفائه الميامين، كأنه لم يرزح اعواماً اربعةً تحت وطأة النازيين وفظاعة
احتلالهم.

فقلت في نفسي : ان شعباً لا يضعضه تفاقم الحزن والإخفاق،
ولا تذله كوارث الجور والارهاق، لخليق بأن يستوي في ركب الشعوب
القائدة، لا في قوافل الشعوب المنقادة.

في جبهة الفوج

كان ذهابي الى جبهة الفوج في صباح يوم، تراكم جليده واشتد صقيعه، وهوت سحبه على الارض، تنشر مطارفها البيض منسوجةً بخيوط الثلج وموشات بجأت البرد.

لقد اخترت هذه الجبهة الجليّة العاتية لأخدم فيها بسبب قربها من الحدود السويسرية الإيطالية، لعلّ القدر يوّاتني فالتقي هناك خطيبي المفقود على حدودهما.

سرت بمعية بعض الاطباء والمرضات في مؤخرة قافلة من قوافل الجيش الفرنسي المتجهة شطر ذلك القطاع الجلي الشديد الوعورة والقر، والكثير الادغال والعواصف.

لم اشعر بوطاة الألم والارهاق خلال سفري الطويل من شواطئ بلادي الى باريس، مثلما شعرت بهذه السفرة القصيرة الاجل.

فاجتزت طريقاً موحشةً يعلوها الضباب ويغمرها الثلج، وتصفر الشمال في جنباتها نافثة كل ما في جمعيتها من صقيع يصك الاسنان، ويرجف الابدان، ويجمّد عصير القلب ولهثات اللسان.

وكانت ركائبنا المصفحة تردّ عنا بعض غوائل البرد، وتعلو وتهبط بنا، وهي تشق مناكب الجليد بالزار والحديد. وتتلوئ زاحفة في معابر

الجبال وشعاب الاودية، كأنها افعوان غريب من افاعي الاساطير، او غول عجيب من غيلانها .

وكنّا على عرض تلك الطريق نتيّن ما حلّ في ذلك القطاع من مآسي الحرب وويلاتها، على الرغم من كثافة الثلج الذي كان يجلب عنا مشاهد خرابه وحريقه، حيث كانت بعض جدر المنازل المهذمة، وعمد الاشجار المحطّمة، تطلّ علينا من بين فوهات الثلج برووسها الكالحة التي تدلّ على دوارس تلك الربوع وفوادح مآسيها .

لم نقطع من الطريق نصفها عندما فوجئنا بريح صرصر اهابت بنا الى الوقوف هنيئة عن السير اتّقاء لخطارها . فقد كانت حقاً زوبعة هائلة الهبوب، شديدة الصر، تلعب بجلاميد الصخور الراقدة تحت الثلج وتقذفها من مشارف القمم الى مطاوي الاودية، كما تقذف الكرة .

انها لساعة رهبة تلك الساعة التي احسست فيها اني بين اشدق الموت . فتضعضت قواي، واشتد صداعي حتى كدت افقد رشدي . فأعاني طبيب من اطباء الجيش كان بقربي ووجرعني من العقاقير ما سكّن روعي، واهمد صداعي، ثم التفت الي وقال لي: تشجعي يا ابنتي لا تخافي اليست شيئاً هذه الزوابع الشائرة تجياه الحرب التي سنخوض غبارها قريباً . نحن هنا كما قال الانجيل: في اول الخاض .

وما أن هدأت وطأة العواصف الجاحمة حتى واصلت القافلة سيرها في منعرجات الفوج متجهة شطر المعامع الدائرة رحاها في شعاب ذلك القطاع المنيع الذي يتصل شرقاً بمدينة كولمار، وجنوباً بمدينة بلفور . غير أننا كدنا لاننجو من هول الزوابع الطبيعية وصواعقها المدوية في تلك البطاح

وننشق قليلا اجسامنا المهدودة، ونفوسنا المكدودة، حتى فوجئنا بما هو
اشد فتكا وافظع هولاً واروع دويًا .

فرجمتنا السماء رجما بصواعق القلاع الطائرة المتأججة من عنصر
دماغ الانسان، لا من عناصر الطبيعة، وقد فتنا ببروق ورعود من بروق
علمه ورعود كيميائه، لا تقاس فظاعتها الهائلة بفضاعة بروق السماء
ورعودها !

فالفيت الطبيعة الشائرة حقيرة حيال الانسان الشائر . وجنونها
المطبق ضئيلاً إزاء جنونه . لأنها مهما اشتدت صواعقها ودوت رعودها
لا تعدل ذرة من هوجاء صواعقه وهزيم رعوده .

فاطاحت كواسره المجنحة كثيراً من سيارات القافلة وبددت
ركبها شذر مذر . فالتوت سيارتنا عن الطريق العام ملتجئة الى منحرج
يتلوى في بطون الجبال، تشد مستقراً اميناً بين احراجها ومغاورها .
ثم توقفت بنا في قلب الغاب امام كهف قديم الهجرة، يرجع الى عهد
الانسان الحيوان في العصر الجيولوجي الغابر . فترجلنا منها وشرعنا
تزيح ركام الثلج عن مدخل الكهف لنتمكن من اللجوء اليه . بيد
أننا لم نلبث في داخله سوى عشرين دقيقة خلناها عشرين ساعة، لأن الارض
تحت ارجلنا كانت جليداً قارس الرطوبة والبرد، والسقف فوقنا مقرنساً
يجمد الماء، ينفث قطراته علينا وعلى تلك الارض فتقع مجمدة من هول
القر والصقيع .

وكانت صواعق الانسان المتساقطة من وراء السحب، تساقط السيل
الجارف، تتفجر حولنا تتجر الجحيم، حيث كنا نشاهد بأب العين، نيرانها

الجنمية ترمد الشجر بسرعة البرق، وتصهر الصخور بلمح البصر، وتذيب جبال الثلج بطرفة العين.

.

وتدققت الامطار عقيب تلك الغارة الهائلة تدفق الجداول. فاخذت سعيها الجنمي الذي كان يلتهم تلك البقاع التهاماً، ويحيط بالكهف الذي لجأنا اليه احاطة السوار بالمعصم. فنجونا بفضلها من الموت حريقاً ونجت سيارتنا ايضاً من اشدق النار التي اوشكت ان تقضمها. فصعدنا اليها إثر انفراج السيل ومضينا بها الى الطريق العام نتحرى قافلتنا ونبحث عن رفاقنا.

وكانت سيارتنا تحب حيناً بنا، وتتعثراً حيناً، من جراء تراكم حطام الاشجار والصخور التي اودت بها الغارة ودفعتها ركاما على الطريق. فبذلنا جهوداً تعجز عنها الجبارة لأجل تأمين مرورنا.

وما أن اشرفنا على الطريق العام واجتزنا منها فرسخاً، حتى بدأنا نلمح حطام القافلة منتشراً على عرض السيل. فترجلنا من السيارة وأخذنا نتفقد تلك الاكوام تفقد الكيماوي اخلاط العناصر. فلم نعثر فيها الا على رمم مرمدة ورمم كالحة اللون، لم نتبين وجوهها، ولم نقع الا على بقايا حديد تدل بعض قطعها على أرقام السيارات. المصفحات التي درستها يد العفاء

ثم عدنا الى السيارة نتقدم بها الى الامام، فلم نجتز ميلاً حتى اعترضتنا انقاض مبعثرة من السيارات والآلات الميكانيكية التي لم تقو القذائف النارية على ترميدها كسابقتها.

فشاهدناها هناك تلتحف الارض على ابعاد متفاوتة، وهي هامة
الجمال . بعضها لم يزل بكامل اجزائه ، وبعضها مقطَّع الأوصال ، منتثر
الحلقات ، انتشار اوراق الخريف .

اما الجنود الذين كانوا في ركبها ، فلم نجد لهم من اثر . بين الانقراض
غير بقايا اعتدة وذخائر . فأيقنا انهم منذ عصفت الغارة تواروا عن الطريق
المعبَّد الى شعب الادغال ينشدون في حناياها نجباً اميناً .

فشددنا الرحال في اثرهم ، نحمل لهم بعض ادوات الاسعاف من ضماد
وأدوية وسرر نَمَّالة . ولم نكد نتغلغل في قلب الغاب حتى بدأنا نرى الهول
— هول الموت الرعب الفظيع — هول مشهد الهياكل الفاحمة ، والاجساد
المقطوعة الرأس والمبتورة الارجل والسواعد .

اشلاءٌ مَنثورة العظم ، واشلاءٌ مخضَّبة بالنجيع ، واشلاءٌ كالحة اللون
تقشعر من رؤيتها الابدان ، الفيناها هناك ملقاة بين اكوام الثلج وجذوع
الاشجار وحنايا الصخور . لم نجد بينها هيكل واحد يتنفس بالحياة .
فذرنا على تلك النفوس الشهيدة دمعاً سخينا وادعناها صلاة حارة ،
ثم لوينا عنها متوزعين فثنين في تلك الارض الوعرة ، نبحت في جنباتها
عن تبقَّى من الرفاق .

فئة توجهت صعوداً بين شائك الصرود ، وفئة مشت منحدرة بين
عصي الوهاد . كنت فيها اسير بجانب الطبيب الذي عالج صداعي ،
وكان دائماً يذودني بالقوة والشجاعة كلما لمس في ضعفاً واستكانة .

مشينا في ذلك الوعر نحمل ارواحنا بأيدينا من كثرة مزالق الجليد
ورغبة اخطاره . وطالما عثرت خطواتنا ونحن نجتاز تلك الادغال التي

كان الثلج في بعضها ينهار تحت اقدامنا فتمسّي ارجلنا الى ما فوق
الركب مدفونة تحت اعقابه . وكنا نتعاون فيما بيننا على النجاة من فداحة
تلك الأهوال التي كانت تعترضنا . وكان الواجب يزيدنا جزمًا وشجاعة
لمواصلة السير من اجل رفاقنا .

ولما اشرفنا على احد المعابر ، بدأنا نسمع انينًا متقطعًا يزفر في آذاننا
متمزجًا بزفرات الريح الباردة التي كانت وخزاتها علينا اشد وقعًا من
وخزات الابر .

فاتجهنا شطر الانين . فاذا بنا امام مغارة تداعت بعض صخورها من
صواعق الغارة على رفاقنا اللاجئين اليها ، فشهدنا حولها وفي داخلها
مجزرة بشرية هائلة . اجساد حطمتها الانقاض ، فسحقت جماجمها ونثرت
امعاءها واجساد ما برحت تحسج تحت الردم لافطة ارواحها بنفس مخنوق
ودم مهراق .

واجساد منطرحة على الارض يتصاعد انينها ، بعضها مشخن الجراح
وبعضها غير مشخن ، بعضها مقطوع الرجل ، وبعضها مبتور الساعد .
واجناد اعمت الغارة ابصارهم ، وآخرون غشت على بصائرهم .
رأيناهم هناك يتخبطون فوق القتلى والجرحى فيدوسون حرمة الموت ،
وينكأون الجرحات بأقدامهم ، فيزيدونها زيفًا ، ويضاعفون تبايرج الآلام
في الصدور التي ما برحت الا رواح تحقق متلجلجة بين ضلوعها .

فتوزع كل مناحول جريح يغيشه ويضمد جراحه ، وبدأت انبعاثة
شاب اصيب في صدره ، وفي خاصرته ، واضعة رأسه على ركبتي .
فراه الطبيب الذي يجاني يشق شربة المحتضر ، فقال لي : دعيه لارجاء

منه وعالجي من به الرجاء . فخلته كأنه وعى كلام الطبيب ، حيث
ابصرته يحلق في كأنه يستغيثني . فلم اتركه حتى جمدت عيناه
وسكنت رئتاه .

هذا اول جريح لفظ انفاسه بين يدي . لا بل اول امرى نظرتة
امامي يشهق شهقة الموت .

ان خيال جثائه المضرج بالدم لا يبرحني ، ومشهد عينيه الشاخصتين
الجامدتين لا يغيب عن ناظري ، في حين انني ابصرت بعده عشرات المحتضرين
في مصحات الجيش ، وفي ميادين الحرب ، ولم احتفظ بسمائهم في تضاعيف
خيلتي ، كما احتفظت بسمائه . ذلك مما جعلني أو من على ان القلب البشري
مهما يكن مرهف الحس ، يقسو اذا توالى عليه المحن والفواجع ويألفها كما
يألف تعاقب النهار والليل .

.

عدنا بالمصابين الى السيارة نحمل بعضهم على الاسرة ، ونمسك
بايدي البعض الآخر ، وكانوا عشرين رجلا بين جريح ومفقود البصر
والبصيرة .

فدهمتنا العتمة ونحن نحتاز بهم أصعب المعابر . فأخذنا نستعين بالمصابيح
الكهربائية التي كان يحملها كل منا لتأمين خطواتنا ومعرفة وجهة سيرنا .
ولولاها لهلكنا جميعاً .

ولما شارفنا الطريق العام ، رأينا رتلا من السيارات تمشي الهويناء
قافلة لا متقدمة الى الامام . فايقناً انها شرذمة من شرادم قافلتنا ، عادت
تقل رفاقاً جرحوا في تلك الغارة الى اقرب مصحات الجيش في تلك

الأنحاء .

وقد ألفيناها عند اقترابها من سيارتنا، تقف بجانبها مصطفة واحدة اثر الاخرى، كأنها بانتظارنا. وقد توقفت حقاً عن السير هناك لهذه الغاية . لأن بعض ركابها الجنود لحوا من نوافذها اضواء مصابيحنا، وابصرونا نجتاز الغاب بجرحانا . فتوجه بضعة انفار منهم نحونا لأجل مساعدتنا، فأدركونا قبل ان نبلغ الطريق، وفي الوقت الذي كنا فيه على شفير الاعياء، من وطأة نقل الجرحى على مناكبنا في احلك الليالي وفي اوعر المسالك .

فتنفّسنا الصعداء منذ وصولهم الينا، وقيامهم مقامنا بهذه المهمة الشاقة . وبلغنا الطريق سالمين .

فراينا السيارات الواقعة هناك تغص بالجرحى . فاضطررنا ان نحشد بسيارتنا جميع رفاقنا المصابين، ونتوزع نحن الاصحاء على مدارج السيارات .

وقد اخبرنا الجنود الذين جاؤوا لاغاثتنا بان معظم القافلة نجا من الغارة وادرك المعسكر . ولم نصب على وجه التقريب باكثر من مئة وخمسين نفساً بين قتيل وجريح .

مشينا على مهل في فحمة الليل، بين رعود قاصفة ورياح عاصفة، وبين آهات وزفرات متصاعدة من حناجر الجرحى ومختلجة في صدورهم .

وكانت المسافة التي قطعناها للوصول الى المصح جد قصيرة، غير انها كانت جد موحجة لارواحنا، ومجدة لاجسامنا .

والمصح يقوم في لحف جبل منعزل عن الطريق العام ، تحجبه عن انظار المغيرين نواتي الصخور والغابات الكثيفة القائمة حواليه .

وقد انشاء الجيش خصيصاً في غمرة الحرب ، كهمة وصل يتناول فيه الجرحى بعض الراحة والاسعاف ، ثم ينتقلون منه الى مصحات ديجون وبزنسون وغيرهما .

لبشنا نحن وعمدة المصح نداوي الجرحى الى ما بعد منتصف الليل . ثم أوى كل منا الى السرير الذي اعد له .

فارتقت على فراشي ارتقاء الجدار المتصدع من شدة الاعيا ، ومع ذلك فلم اتمكن من النوم . وكيف ازام ولم تبرحني دقيقة اشباح القتلى وآهات الجرحى وحسرة المحتضرين . ولم يفتني لحظة خيال خطيبي وتأملني بغموض مصيره .

وفي الصباح الباكر شددنا الرحال الى جبهة الحرب ، وكنت السماء متشحة بضبابها الكثيف ، تنشر منه على الارض رذاذاً ناصع البياض . غير انها لم تكن مجنونة الاعاصير كالיום السابق .

لم نجتز بعض الطريق حتى بدأنا نسمع هزيم المدافع يلعلع في تلك الارعاء ، وكنا كلما سرنا قدماً ، يزداد القصف هولاً ، وتتضاعف الاصداء المنبعثة من جوانب الاودية والجبال زئيراً ودويّاً .

وصلنا قبل الظهيرة الى المصح النقال الذي يرافق الجيش ، وكان يبعد عن ساحة القتال بضعة اميال ويقوم بجانب قرية لم تبق الحرب منها غير الانقاض .

فبقينا نحن المتطوعين في الصليب الاحمر هناك ، اما الجنود الذين

كانوا يرفقتنا فتابعوا سيرهم الى الجبهة .

وكان في المصح المذكور بعض الجرحى وعددٌ من الاطباء والممرضات ، ينتظرون بفارغ الصبر خلود المعركة الدائرة رحاها على مقربة منهم ، ليتمكنوا من انقاذ الجرحى واسعافهم قبل فوات الاوان .
لم نشهد هول الموقعة من المستشفى ، لأنها كانت مستعرة خلف الجبل الذي كان يحجبها عن انظارنا . فلم نبصر غير معركة الجوّ وما كان يتفجّر منها على الارض اطنائاً من القذائف وصواريخ النار .
فكنا نرى الطائرات المحترقة المتأججة بافطع الصواعق تهوي في تلك البقاع ، كأنها اشلاء نجوم هاوية . فتخال الشمس انصهرت والارض زلزلت ، والسماء استحالت الى غاز محرق وجحيم مبيدة .
كيف لا - والمعركة في ذروتها كانت اشد هولاً من اساطير معارك الجن ، وتخرّصات جوامح الخيال .

فالبراكين المتفجّرة من القلاع الطائرة المتشابكة في الفضاء ، ولعلعة المدافع المتواصلة الازيز ، المنطلقة من الجانبين المتحاربين ، كانت تدكّ الجبال دكاً ، وتنتشر أعمدة النار هابطة صاعدة من اطباق الجو الى اغوار الارض ، ومن اغوار الارض الى اطباق الجو .

ولما خفّ اوار المعركة ، اسرعنا الى ساحتها مزودين بأدوات الاسعاف اللازمة لمعاونة الجرحى ونقلهم الى المصح .

فعدت بنا السيارات قبل ان تحرس المدافع ويخبو هدير الطائرات .
فكنا بين الفينة والفينة نسمع ازيز القنابل حيث كان بعضها يترامى على جوانبنا فيحدث الرعب في قلوبنا .

وعندما شارفنا خطوط النار، كان العدو قد تراجع نهائياً عنها، مبتعداً بضعة أميال عن دائرتها الواقعة في قلب الفوج وفي اعمر قراه، تاركاً في أرجائه الخربة المصبوغة بالدم آلاف القتلى والجرحى وعدداً وافراً من العتاد الحربي .

وكان جيشنا الحليف قد تجاوز الموقعة أيضاً جاداً في اثر العدو المنهزم، بغية تطويقه ومنعه من الفرار . ولم يبق منه في ساحة العراك غير شراذم ضئيلة رأيناها عن بعد تبحث عن المفقودين بين الخنادق المتداعية وانقاض البيوت المهتمة .

.

وصلنا الى منبسط بين الجبال تغمره الجثث، وتتجاوب فيه الحشرات والآهات، وتبدو في منخفضاته وآكامه، وسفوح قمم عشرات القرى والمزارع المهتمة .

فحدث لي ارتعاش نافض منذ وقعت عيني على هذا المشهد الرهيب . فحنّنت لمعونتي احدى الرفيقات المتطوعات، وهي فتاة فرنسية كانت يجانبني تدعى مرتافيان، وادركت في الحال انني حديثة التطوع، لم اشهد ميدان حرب قبل هذا الميدان .

فسكنت روعي، وازالت رعشتي بوافر عطفها وحنانها وعلى الاخص بقولها لي : انها ايضاً اصابها ما اصابني في اول معركة ولجتها وابصرت ضحاياها . ورجت مني ان افكر في الواجب لا في نفسي، لأنزع عنها الخوف، وامشي بقدم ثابتة لمعونة جنودنا المضرجين بالدماء، المنتظرين على احر من الجمر قدومنا، لأجل تضميد جراحهم وانقاذهم من غوائل

الموت . ورغبت ان اسير بجانبها لتضافر معاً في هذا السبيل .
فسرت برقتها وثيدة الخطى ، متغابة على الرجفة التي هزّت اعصابي ،
وعلى الخوف الذي ضعزع كياني .

واصبحنا منذ ذلك الحين رفيقتين متلاصقتين ، وصديقتين حميمتين .
نعمل في حقل الواجب معاً ، وفي ساعات الفراغ نتبادل الاحاديث عن
بلادنا وعن منشئنا وخفايا قلوبنا .

ومن غرائب الصدف الفيتها مثلي مصابة بخطيبها المفقود في معركة
البلجيك . لا تعلم مصيره ، كما لا اعلم مصير خطيبي . والرزم المتقارب زادنا
حبةً واثلاًفاً . بدأنا نبحت عن الجرحى في ساحةٍ مكدسة بالجلث ،
وكان بعضها ما يزال ساخناً تختلج فيه الروح ، وبعضها مشوهاً ، مبتور
الرأس ومبقور الأعماء . وبعضها ممزقاً اشلاء متناثرة هنا وهناك .

فشرعنا نلج الجرحى من بينهم ونبعث بهم الى المصح بعد معالجة
سريعة ، وضمايد موقت ، يبعد خطر التزيف والموت

فكنت ورفيقتي نعمل معاً متنقلتين من جريح الى جريح ، ونتعاون
عند اللزوم مع الرفاق في حمل الجرحى الى سيارات الاسعاف .

ولما ولجنا قلب المعركة الفينا الجلث تملأ الخنادق وتغمر اديم
الارض . جثث فتيان في ريعان العمر وريق الصبا ، لم يكدر ربيع الحياة
يلبسم لهم ، واكهام الرجولة تتبّين على ملامحهم ، حتى صرعتهم الحرب ،
وحوّلت جسومهم اليانة الى جيف رهيبة المنظر ، فظيعة الشكل ،
والى اجساد مخضبة تصعد زفرات الحشرة والازنين . فشرعنا نتفقدهم
واحداً واحداً لنرى من فيه رمق لتنداركة قبل فوات الاوان .

وقد ارغمتنا كثرة الجثث للتراكمه هناك، على ان نطأ بعضها اثر
بحشنا وتفتيشنا.

ولا ازال اذكر انني وطئت جثماناً شعرت به كأنه ينتفض تحت قدمي.
فلويت عنه متصبية بالعرق، مرتجفة من الخوف. ثم أخذت اقلبه فرأيت
ساخناً، غير انني لم اتحسس له لهاثاً ولا اثرأ للحياة.

فقلت لرفيقي: يا ويلى اهل يا ترى وطأني سببت له الوفاة؟ ام زادته
ايلاماً باختلاجه الاخير! لقد نشدت الخير بعلمي فكان شراً.

فأجابني بلطف وتؤدة: اكظمي ارهاف حسك كي لا يضع
قدر جهادك وفضلك. ودونك غيره من الجرحى، فهم أكثر يحتاجون الى
معونة سريعة.

فلبيت ندائها في الحال وسلكت طريقها في مواصلة البحث عن
المصابين وبذل الجهد لاسعافهم.

هناك وقعنا على عدد وافر من الجرحى الالمان الذين وأت جيوشهم
الادبار دون ان تتمكن من انقاذهم. فلم نفرق بينهم وبين جرحانا في
حسن المعاملة والرفق. هذه ميزة مبررة الصليب الاحمر التي لا هدف لها
في الحرب، غير خدمة الانسانية المترفة عن شوائب العدا والبغض.
فهي المنظمة الوحيدة في الكون التي تسمو على مطامع البشر وخصوماتهم،
وتعلو على تناحر شعوبهم وتنازع اجناسهم وشيعهم.

وبينا كنا نحث الركاب بالتفتيش عن الجرحى، كان الجنود من ورائنا
يهدون يجمع القتلى لأجل احصائهم، ومعرفة هويتهم وتبدير امر دفنهم.

ان افطع ما آلني، وحز في نفسي في ميدان المعركة، لم يكن مشهد الموت الفظيع الممثل باكداس الجثث والاشلاء، ولا جلجلة الشخير الرابع المتصاعد من حشيرة المحتضرين، ولا الزفرات المخنوقة في الحناجر، والخلجات المتقطعة في القلوب، والدماء السابحة على الارض كالميازيب. اجل لم تكن هذه كلها على تفاقم احوالها، افطع ما مضني وارهب ما وقعت عليه عيني. بل افطع ما تحسسته ورأيتة هناك، مشهد القرى المهدامة، وقد تجمع حولها الباقون من سكانها، وهم بحالة تقنت الالكباد. ليس فيهم شبان اقوياء، ولا كهول اشداء، بل معظم من الشيوخ والعجائز الذين تداعت اعمارهم كما تداعت مساكنهم. ومن الاحداث الذين لم يبلغوا اشدتهم بعد، ومن النساء المثقلات الحاملات في احشائهن وعلى مناكهن. غير انهم كانوا جميعهم على الرغم من اقبال الضعف وسعير الارزاء، يساعدون الجنود فوق طاقتهم لاجل نزع الانقاض عن بيوتهم، والاسراع في البحث عن مفقوديههم، وبقايا امتعتهم. وكانت الجثث المستخرجة من تحت الردم تبدو بحالة يقشعر لها الجراد من كثرة ما لحقها من التحطيم والتشويه، حتى تنكرت هويتها على اقرب الاهل. ولولا بقايا الشيايب اللاصقة بها كادت الام لا تتبين جثة وليدها، والاخ جثمان اخيه، والمرأة هيكل بعلمها.

لقد كانت المعاول والرغوش والآلات الرافعة الانقاض تكشف عن حطام الجثث والامتعة. فتتناثر امامنا اشلاء الناس بمختلف صورها الرهيبة، وبقايا اواني البيوت ومخلفاتها المخطمة. فيهرع اليها القرويون يتفقدونها بعيون جامدة، وحواس مضطربة، وادمغة ذاهلة ذهول

المغبولين ، من كثرة تضعضهم امام كارثة فقدان الاهل ، وخسران
الامتعة والمساكن العزيزة عليهم .

فشهدهم المفجع حول اطلال بيوتهم ، وامام بقايا اهلهم وامتعهم ،
وهم بهذا الذهول المروع ، برح بي تبريحاً شديداً ، وجعلني العن الطينة
البشرية التي الفيتها ساعتئذ ادخل الطينات المتحركة على الارض .
والانكى انها كلما زادت تقدماً وعلماً ، زادت تخضاً بالشر ، وتفناً
باساليب الاثم ، كأن اللسان الذي تميزت به عن مخلوقات الله لم يكن الا
سلاحاً للمناورات وحرب الاعصاب ، والدماغ الذي تفردت به ايضاً ، لم
يكن الا تفرداً باستنباط افطع آلات القتل ومعدات التدمير .

غص المصح بالجرحي ، وامتلات بهم اقبية المنازل القروية التي لم يلحقها
الهدم . وابتدأنا نحن المتطوعات ، على رغم اعيائنا ، نساعد الاطباء في
العمليات الجراحية المستعجلة التي كانت غير قابلة التأجيل .

فكنت ورفيقتي الفرنسية نشغل معاً بامرة طبيب بلجيكي من
امهر الجراحين ، وادقهم خبرة بفته ، وانبليهم قلباً ، واعمرهم حيوية
ونشاطاً .

وقد اجري امامنا بضع عمليات . كلها بغاية الخطورة . فالفيناه
بيتر ساقاً ، ويقطع ساعداً ، ويشق رأساً ، ويبضع عضلاً ، ويصل امعاء . وهو
في كل ذلك دقيق العمل سريع اليد . ورأينا الجرحى المساكين تترجرج
اعضائهم بين شفرات المبضع ، وتشخر حناجرهم تحت البنج شخيراً يقطع
نياط القلوب حتى كاد يغمى علي من هول المشهد وشدة التأثير . غير اني امسكت

نفسي متجلدة حتى النهاية . فلم ابارح غرفة العمليات الا بعد انتهاء
الاطباء من اعمالهم التي لا تؤجل . وكان ذلك في نحو الساعة الثانية بعد
منتصف الليل .

في غضون خروجنا من الغرفة ، قلت لرفيقتي التي كانت يجاني : لقد شهدنا
اليوم حقاً اروع معركة وافطع مشهد من مشاهد الحرب . فاجابتنني
على الفور : تأكدي يا عزيزتي ليست شيئاً فظائع هذه المعركة اذا
قيست بفظائع معارك الفلاندر والنورمندي وغيرهما . .

فقلت في نفسي : ما افطع هذا الجنس البشري الذي ينفث ناراً
احر من نار الجحيم ، واقتل من اقتل الصواعق . فهو جهنم الكون ومها
جهنم الا شرّة متأججة في سويداء قلبه ، وخلايا دماغه .

الى كولمار

وبعد ان تحررت مناطق الفوج الأ من بعض شرادم ضئيلة لا يؤبه لها، صدرت الاوامر الى فرقتنا في الضليب الاحمر للتوجه حالاً الى مدينة كولمار التي كان جيشنا الحليف يشدد عليها الحصار ويهاجمها بكتائب دباباته واسراب طائراته وفيالق مشاته .

فوصلنا اليها في ابان المعركة الفاصلة التي انتهت بفوز جيشنا الحليف ودخوله المدينة في اليوم الثالث من شهر شباط ١٩٤٥ .

وكانت فرقنا في مقدمة الداخلين اليها لأجل القيام بعملية الاسعاف العاجل لاولئك الجنود المساكين المخننين في الجراح .

بدأت ورفيقتي العمل معاً، فشرعنا ننقل كل جريح نعثر عليه الى اقرب سيارات الانقاذ التي كانت تذهب وتجيء بين الساحات والشوارع، ومصحات الجيش ومستشفيات المدينة .

وصرت كرفيقتي تجاه فواجع الحرب، لا اشعر برجفة في القلب، ولا برعشة في الاعصاب، حتى امست عندي عملية انقاذ الجرحى من بين الانقاض والجثث والاشلاء، عملية ميكانيكية، يحفزني اليها الواجب الانساني الصرف .

غير اني لا ادري كيف عاودتني القشعريرة عندما وصلت امام

جريح اسلم من غيره جراحاً. و اقل تشويهاً على الرغم من الدماء الجامدة على وجهه، وهي مخضبة بدخان البارود الذي كان يخفي معالم بشرته . فلم اتحسس له منظراً . ولم اعرف له هوية، حتى اني لم اشاء مخاطبته بذلك كي لا اسبب له انزعاجاً .

فوضعتني في سرير الانقاذ وانا ارتجف ارتجافاً، وذهبت به بصحبة رفيقتي الى اقرب السيارات .

هناك شعرت بقوة داخلية تدفعني لمرافقته الى المصح . لكن الواجب كان يدعوني لاقام عملي في ساحة القتال . فهمت بالرجوع مع صديقتي . فلم تحملني الرجلان اللتان كانتا تنتفضان انتفاضاً، ولم تساعدني اليدان ايضاً اللتان كانتا ترتعشان ارتعاشاً .

فقلت لي رفيقتي : لقد اضناك التعب، فاذهبي للاستحمام في المصح وكوني براحة، فلم يبق من الجرحى في الميدان الا القليل .

فبقيت في السيارة جالسة ازاء الجريح، حيث كنت اشعر بدافع نفسياني يضطرني الى البقاء بجانبه . ولم اشعر بمثل هذا الدافع من قبل على كثرة الجرحى الذين احطتهم بعنايتي في مختلف الميادين .

فتحيرت في امري وفي غرابة هذا الدافع الذي استولى علي، لأنني لم اتوقع ابداً بان يكون هذا الجريح الا فرنسياً، حيث كنت اخدم هناك ضمن نطاق الجيش الفرنسي . وحيث كان بين الآونة والاخرى يصعد زفراته متمتماً ببلغة ابناء السين .

وصلنا الى المصح عند الغروب . فوضعنا الجرحى في قاعات المعاينة ليتدبر الاطباء امرهم . اما انا فلم ابرح سريرى مترقبة قدوم الطبيب

البلجيكي الذي اشتغل تحت امرته، لاستعجله اليه. وما ان رأيته يدخل القاعة حتى اسرعت اليه متوسلة بان يبدأ بمعاينة هذا الجريح الذي لا ادري كيف استأثر بجماع عظمي وحناني.

فتمسّ الطبيب نبضه، وكشف عن جراحه، فراه بحاجة الى المبضع، فأمرني بنقله فوراً الى غرفة العمليات. هذه الغرفة البيضاء التي تزخر بالآلم والامل، وبالحياة والموت. ولا تحتوي الا مائدة للبضع، وآلات للجراحة، وعقاقير للضماد ولتسكين الالوجاع.

هذه الغرفة الناصعة الفيتها ساعتئذ اشد حلكة من احلك الليالي، وارهب من ارهب الفواجع. لأنني لم اتخيل فيها غير اشباح الموت تملأ جدرانها، واطيافه المخيفة تسبح في جوها خائفة باجنحتها السود فوق المائدة التي وضع عليها الجريح، ووقف حولها الطبيب يتفقد جراحه. ووقفت ورفيقتي بجانبه، ونحن على تمام الالهة لمعاونته. فأومأ إلينا بان نبدأ بنزع الدماء، والاقذار الجائدة على وجهه ورأسه ليتبين الجرح الذي اصابه في جبينه.

فقمنا بهذا العمل معاً حتى تبينت ملامح الوجه. فاخذت احقق بها واتفرس في تلك الاساور التي طالما نشدتها. ثم جمدت عينا من شدة الانفعال والتأثر. فأغمي عليّ

ولم استفق الا بعد انتهاء الطبيب من علاجه. وقد خفت رفيقتي حالاً الي تبشرني بنجاح العملية التي أجريت له. وقد كانت على قولها: عملية مزدوجة في ساعده اليمين، وفي ساقه اليسرى. اما الجرح الذي اصابه في جبهته فكان ضئيلاً لم يستوجب الا بعض القطب

فرجوتها بان ترشدني الى غرفته . فشيناً معاً اليها وانا مرتدية ثياب
المرضات ، وتمدثرة بخمار يخفي معظم وجهي ، كي لا يتأثر من معرفتي على
الفور . فرأيت لم يبرح تحت وطأة البنج ملفعاً رأسه بالضهاد وهو يزفر زفيراً
متواصلاً . فجلست ازاءه صامتة لا انبس بغير دموع العين وخلجات
القلب . فعرفت رفيقتي انه هو املي المنشود دون ان اعرفها به . فقالت
لي : هنيئاً لك بلقياه ، وطبي نفساً بمرآه . فجراحه ليست خطرة كما تتوهمين .
ثم انصرفت الى عملها ، وبقيت وحدي بجانبه اترقب نبضه واتدبر
انفاسه .

وبظهر ان رفيقتي افضت بالخبر حالاً الى الطبيب البلجيكي ، فجاء
على الفور يستفقدني مهيناً مطمئناً . فاراحني من هواجي المرتبكة
عليه .

ولما ضل مفعول البنج ، بدأ اميل يشرب بالآلام الجراح ، وجفاف
اللسان . فطلب جرعة ماء يتلمظ بها . فناولته مسكناً ينعش القلب ويخفف
وطأة الظلم . فجرعه ، فعاودته الاغفاة . غير انه لم يلبث طويلاً حتى فتح
عينيه ، وادار رأسه نحوي طالباً جرعة اخرى ، فناولته ايأها ، فرشفها
رشفة المنهوم من شدة اواره . وبقي على تلك الحال يوماً كاملاً لا يروي
السائل عطشه ولا يسكن الدواء ألمه .

و كنت اتمهده بعنايتي دون ان ابرح سريره لحظة واحدة
اما الشيء الوحيد الذي ادهشني وما برح يدهشني حتى الان ،
فهو تلك العاطفة الوجدانية التي احسست بها نحوه قبل ان اعرفه .
فهل للعاطفة عينٌ اعمق بصراً من الباصرة ؟ وهل للروح شعور

اشد نفاذاً واوسع مدى من شعور الجسد ؟

.....

في المساء الاول بدأت حرارة اميل تتصاعد حتى بلغت درجة الاربعين . فشرع يهذي ، وهو يدمع ، كلما رد اسمي واسم مدينته ووطنه . ويقطب وجهه ، كلما ذكر احدى المواقع الحربية التي خاضها في افريقيا واوروبا .

وتدنت حرارته قبيل الفجر . فأخذ يتطلع حوله يمينا وشمالا . وما ان ابصرني حتى خاطبني قائلا : اتوسل اليك يا ملاك الرحمة بان تكتبي هذا العنوان : ولفظ اسمي وعنواني ثم اردف : ابرقي لها هكذا :

لم نفترق قط بالروح لأنني كنت ارى دائما روحك ترفرف حولي في المعارك . وهي اليوم تطوف حول فراشي فتدمل جراحي وتهبني الحيوية والنشاط . غدا نتقارب جسدا كما نتقارب روحا .

فسلخت ورقة ببضا . من دفتر بجيبي ، وتظاهرت بكتابة برقيته ، لاجمة عواطف الملتبة في حواشي الصدر ، ودموعي المحترقة في مطاوي الاحداق .

ومضيت عنه ، ثم عدت اليه اطمئنه بارسال البرقية التي ولجني بها . فانفجرت اساريه ، وطابت نفسه ، فاستسلم للكرى ونام بضع ساعات نوما هادئا مريحا .

ولما استيقظ بادرنى بقوله : تعتقد العجائز ان أحلام الفجر تصدق في معظم الاحيان . ويشار كهن في هذا الاعتقاد بعض علماء النفس . وها اني حلمت في هذا الصباح ان خطيبتي بجانبي . وقد شاهدتها كأنني

في اليقظة لافي الحلم ، تلاعب شعري ، وتحنو عليّ قائلةً لي : جئتك
بنفسي جواباً فكن مطمئناً .

فهل يحمل الي البرق جوابها؟ ولتخفي الغد القريب بطرائف اخبارها ؟
فاجبته : وانا دامعة العين باسممة الشجر بلهجة غير لهجتي الكندية كي لا
اسبب له الضرر بمعرفتي فجاءة . ربما صح حلمك وجاءت خطيبتك
بنفسها اليك ، فقد تصح الاحلام ، وقد يصبح المستحيل ممكناً باذن الله .
فقال : ربما ثم اردف : يا ليت كلمة ربما ينبجس منها نور الامل
وتصبح حقيقة واقعة .

قضى النهار كله وهو بحالة مرضية . وفي اوائل الليل بدأت حرارته
ترتفع ، غير انها ظلت متدنية درجتين عن الليلة السابقة . فتمكن ان
ينام بدون امتعاض بضع ساعات متوالية . ولما استيقظ ورآني ما ازال
بقربه خاطني دهشاً : هل انت لا تزالين هنا ؟ لماذا لم تذهبي الى فراشك ،
وتأخذي قسطك من الراحة والنوم ؟ فانا كما ترين سليم الجراح لا
احتاج الى بقائك بجانبني . فاجبته :

لقد عاهدت نفسي ان اسهر على تمريضك . فانت في ذمتي وعهدي
حتى تبرأ من جراحك .

فقال : ان عملي هذا يفوق الواجب المحتم على الممرضات ، حتى
صرت اعدته تضحية منك لا واجباً ، لأنني ارى عنايتك القصوى بي
تفوق عناية الام وعطفك يفوق عطفها

فاجبته : انني اعمل كل ذلك من اجلك لأنك انت هنا بين الجرحى
الفرنسيين ، غريب عن اهلك ، وعن وطنك واود ان اخفف عنك

بجنوي الزائد ألم غربتك .

فشكر لي حسن صنيعي، غير أنه الحف بالطلب كي اذهب حالاً الى النوم، لأرتاح ولو قليلاً من عناء السهر. فنزلت عند مشيئته، وذهبت الى فراشي قبيل السحر. فادر كني النعاس وانا احلم بتهيئة انجع الخطط لاعرفه بنفسي . ولم ينفك عقلي الباطن عن مواصلة هذا الحلم طيلة رقادي ...

ولما استيقظت ذهبت تَوّاً اليه، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً، فرأيت الطبيب البجيجي هناك ينتزع الضمائد عن جراحه ليكشف عنها، ويجدد تضحيدها . فعاونته . ثم سأله عنه، فطمأنني خيراً . ثم وجه الكلام اليه قائلاً : طب نفساً يا عزيزي، لاضرير عليك، فانت في عهدي وتحت رعاية ممرضة من افضل الممرضات، ومن اشدّهم عطفاً وحناناً . وهي كندية من خلّص مواطنيك .

ان هذه البادرة التي فوجي بها، جعلته يتطلّع اليّ تطلع المشدوه، ويشخص بي شخص من يتحرى امري، ويتقصّى خبري في عوالم نفسه ودفائن ذكرياته .

ولما رأى الدمع يترقرق من عيني، والكلام يتلجلج في في، انتفض قائلاً : ربّاه اهل صحّ حلمي؟ هل انت ماري؟ فانحنيت عليه اطوّقه بذراعي، ودموعي تعانق دموعه، وأنفاسي الحرّى تصافح أنفاسه، حتي كان لنا مشهد من اروع المشاهد تراءى فيه الحب باكل معانيه، وتجسم فيه العطف بامثل نواحيه .

وكان اول سؤال القاه علي وهو دهش ببقائي : كيف تسنى لي

الوصول اليه ؟ فأجبتة : اوصلني اليك الصليب الاحمر ، حيث انت الذي
تمنيت علي في رسالتك الاخيرة بان اكون في عداد متطوعاته . فنزلت
عند رغبتك ساعة نشر اسمك بين المفقودين . وقد احببت ان اخدم في
هذا القطاع ، منذ دخل الجيش الحليف ارض فرنسا ، لان هاتفاً من
خوالج النفس كان يعللني ببقائك هناك . فصحت نعمة النفس وصدقت
احلامها ، فشكراً لله . وطمانته عن لفيف اهله وصفوة اصدقائه الذين
يرتاح لاستماع اخبارهم . وهو بدوره شرع يقص علي باقتضاب كيف
وقع اسيراً في ضواحي فلورنس ، وكيف هرب من القطار الحديدي
الذي كان يقل . الاسرى الى معتقلات المانيا . وكيف دخل سويسرا
وتوغل في هضابها وادغالها مشياً على قدميه ، حتى بلغ بحيرة ليمان واستقر
في قرية صغيرة تُشرف عليها ، ولا تبعد عن الحدود الفرنسية الا قليلاً .
والمع لي ايضاً كيف قاده الحظ الى بيت منفرد عن البيوت ، تسكنه
عجوز وحدها لا انيس لها فيه ، غير كلبها ودجاجها . وعجلتها الخلوب ،
وحديقتها الصغيرة المفعمة بالشجر المثمر ، وبيع بعض الازهار والخضار .
وليس لها غير ولدٍ وحيدٍ غادرها الى المكسيك قبل اندلاع الحرب بامد
وجيز .

فاحسنت وفادته واحاطته بكامل عطفها وعنايتها ، كي لا يشعر
بغربته ، معتقدة بان كل ماتعمله في سبيله ، يعود الى وحيدها المغترب ،
فيؤتى مثله في ديار مهجره . وطالما سمعها تبتهل اليه تعالى كي يرزق ولدها
من يحنو عليه حنوها على النازل في كنفها .

وقال لي ايضاً : انه عاش في منزلها ما يقرب من العام محاطاً بوافر

رعايتها، مخفوفاً بجميل برّها وسعة ضيافتها. وهو ما دام حياً لا ينسى فضلها عليه. ويودّ ان يحضنها الشكر ويؤدّها باخباره، عندما يتمكن من ذلك. وانبأني ايضاً انه مذ عرف بدنو الجيش الحليف من معاقل الفوج، جاءها مودعاً، وجأ الى الجبال يقطعها متخفياً. فعبر الحدود الفرنسية المكتظة بحافل الالمان، وتجاوز معاقلم الحصينة باعجوبة ربانية حتى بلغ مدينة بلفور. فانضم فيها الى الجيش الفرنسي، وحارب تحت لوائه في بعض قطاعات الفوج، وفي مدينة كولمار، حيث سقط جريحاً وساعدني القدر بالعثور عليه.

.....

ولما وصل في حديثه الى المقطع الاخير، انهلت دموعه عفواً. وتلعثم لسانه عن مواصلة الكلام من شدة التأثر. فتوقّف هنيهة حتى ملك روعه ثم اردف: تأملي يا عزيزتي كيف حقّق الله في لقائنا هذا اسطورة الاجيال السحيقة في الوطن الام. فبعثها من ثنايا آلاف القرون ومن طيات اغوارها البعيدة مذ بعثك الى كولمار، حيث عثرت عليّ مضرّجاً في ارجائها، كما عثرت عشتروت الهة لبنان القديم، على حبيبها الجريح ادونيس اله اجدادنا القدماي.

لقد حملت صليب الرحمة والرفق في غمار هذه الحرب، لكي تحجي الدماء المرافقة من اجل دم حبيبك. فسكبت على الجراحات بلسماً، وعلى القلوب الدامية برداً. فكنت في الواقع اطهر روحاً، وارق قلباً، واعمق حباً، وارحب صدرأ، من الالهة عشتروت التي حوّلت النهر دماً ثاراً لدم حبيبها الذي هرق على ضفافه.

غابت شمس ذلك النهار، ولم يغب نظره عني. وبقي يتطلع اليّ بنهم ولا يشبع من التطلع، حتى ادركه النعاس في ساعة متأخرة من الليل. واستيقظ في الصباح يشكو وخزالم في ساعده الجريح، فحلت رباطه، فلم يسترح. ثم كشفت عنه لاغير ضماده. فرأيت الجرح كالحا ينزّ دماً مكفهرًا.

فاستدعيت له الطبيب حالا. فقال لي بعد معاينته : انه بُرى من جرح جبينه، وبدأ جرح ساقه يلتأم، اما جرح ساعده فبغاية الخطورة. وهو يخشى ان يتفاقم فيضطر الى بتر ذراعه صوناً لحياته. وعالجه برهم جديد وقال لي : انه ينتظر الغد ليحسم في امره.

صرف اميل نهاره متوجعاً. وفي اوائل الليل بدأت حرارته ترتفع والآلامه تزداد زيادة كادت تقطع نياط قلبه. فاستعنت بالمخدرات لاختف عنه. ولما ذرّ قرن الصباح خفت الى الطبيب اعلمه بامره. فجاء على الفور يتعهد جرحه. فرآه قد زاد وهجاورأى ثلاث « الفرغرينا » تتحفز للوثوب اليه. فقرّر في الحال اجراء عملية بتر الساعد، كي لا تتسرب جراثيم « الفرغرينا » الى اورده فيقضي عليه. وامر بنقله فوراً الى غرفة الجراحة.

فامتقع لوني عند استماعي كلام الطبيب، غير اني تكلفت الابتسام امامه كي لا يشعر بخطورة جرحه. فلم يفته معرفة ذلك، اذ ابدى لي انه متيقن خسران يده، وان حياته ايضاً مهددة بالخطر.

ولما وُضع على الخوان، قال لي: قبل اجراء العملية بشوان معدودة. يظهر ان لا مناص من قطع يدي، فاذا مت فالى كندا جسدي، والى

لبنان يدي .

هكذا ترقد يدي بين بقايا الاجداد ، يكفنها لبنان بشلجه ، ويلفها بترابه . ويضجع جسدي ملقاً بتراب كندا التي افتداها بدمه ، مجاوراً اعز الناس لديه ، واشدهم حنواً عليه ، حياً كان او ميتاً .

واذا عشت نذهب معاً الى مشرق الشمس — الى الجبل الابيض المتشحة قمه بوشاح الثلج الناصع ، وسفوحه ببواسق الارز الخالد .

هناك بين عبير ارزه ، وركام ثلجه ، وغير مائه ، وارييج ترابه ، اواري يميني — هذا الجزء العزيز الذي سينفصل عني ، واشعر منذ الآن بحنينه الصامت للعودة الى احشاء الوطن الام . فليكن له ما يريد .

فطمانه الطبيب ان لا خطر على حياته . ثم اشار علي بالخروج من الغرفة ، وهو يكتفي بمساعدة معاونه ورفيقتي . فأصررت على البقاء بجانبه . فسمح لي مكرهاً بذلك .

وبدا عملية البتر . فشعرت كأنه يتر يميني ، ويجز عظمي بمبضعه .

لقد كانت حقاً ارهب ساعة في حياتي — تلك الساعة التي شاهدت فيها حبيبي ممدداً ، وهو فاقد الحس من مفعول المخدر . ويد الجراح تقضم ذراعه بالآلة حادة ، وهو لا يعي ولا يتالم كأنه جثمان لا روح فيه .

انتهى الجراح من البتر والضاد . فطمانني بنجاح العملية ، فشكرته ، ثم رجوته ، بان يحفظ اليد المقطوعة نزولاً عند رغبة صاحبها . فوضعها باناء يحتوي سائلاً يمنعها من العفن ، وسلمها لرفيقتي لاجل استئدياعها .

ورافقت خطيبي عندما جي به الى سريره . فكشيت بجانبه ارجاء بعنايتي واصلي لاجل شفائه . وهو ما برح يغط غطيظاً . ثم بدأ مفعول

البنج يتقلص عنه شيئاً فشيئاً. فأريت عينيه تتفتّحان لحظةً ثم تُغمضان،
ورثتيه تتنفسان آهةً ثم تستكنان، ولسانه يتمم كلمةً ثم يجمد.
ولما انقشع عنه البنج، طغى عليه الألم، وفكّ عقدة لسانه. فقال لي
بصوت مخنوق: هل بُترت يدي وحُفظت من الضياع لنقدّمها غداً
ذبيحةً الى ارب الرب ونواربها في اعالي مشارفه؟ فاجبته: ابشرك ببنجاح
العملية وباحتفاظي بيدك فكن مطمئناً.

.

ظل بضعة أيامٍ يقاسي آلاماً مبرّحة. كنت المسها فيه، من شدة
نزوعه الى الصمت، ومن مشاهدتي تقلص عضلات وجهه، بين الفينة
والفينة، على الرغم من مظاهر الرجولة ورباطة الجأش التي كان يتلبّس
بها. ولم يخرج عن صمته الا عندما يبدأ يتأثّل للشفاء. فزايه التجهم وشرع
يكلمني اولاً بلفتات عينيه المشعّتين بانوار الحب اللتين كانتا تغليان
بالدموع المتأججة من لهيب قلبه، وسعير عواطفه. ثم خاطبني قائلاً: لا
شيء في هذا الكون يعادل الحب: انه خميرة الخالق في المخلوق، وينبوعه
السرمدى الذي يروي ظمأ القلب، وينعش خمائل النفس. وهو في جوهره
الهيّ النزعة، يغمر الكون بأسره، ويغرس في ارجائه مختلف بذور الحياة
التي ينبثق منها شعاع الحب الالهى الخالد في هذا الوجود.

وشعاع هذا الحب الذي غمرك بفيض من نوره، هو الذي مهّد امامك
كل حالك وشائك، وجعلك تهتدين الى في مذود دمي، كما اهتدى المحوس
بواسطة هذا الشعاع الى مذود الطفل الالهى. فقدّموا له من الهدايا
اجل ما كانوا يحملون. ثم انصرفوا عمن جاء بالخلاص والرجاء الصالح

لبنى البشر .

اما انتِ فكان مجيئك من اقاصي الارض الى ساحة كولمار ،
مجي . مخلص . يحمل رجاء لجريح مقطوع الرجاء ، ويبعث فيه حياة بعد اذ
اوشك أن يودع الحياة . ولم تحملي له ذلك فحسب ، بل حملت له ايضاً
خير ما تملكين من الهبات ، قلباً مملوءاً بالعطف ونفساً مفعمة بالحب ، ورعاية
مشمولة بالحنان ، ومهجة تجاوزت حدود التضحية فتهاكت على تضحية
الذات في سبيل من تحب ، دون ان تنصرف عنه كما انصرف الجوس عن
الطفل المخلص . . في حين انك كنت له الواهبة كل شيء ، الخلاص من
الموت ، الخلاص من الالم ، الخلاص من عذاب الوحدة ووحشة الفراق .
فانا لك ما حييت شاكر مخلص وفي .

فاجبته : لا شكر على الواجب . ولا على دوام الاخلاص والوفاء .
لانها هيكل الحب وروحه . وكلانا ابدعنا الله روحاً وهيكل الحب .

.

في اول فترة النقاهة ، كانت احاديثنا تدور في مجملها على الذكريات .
فكنت اذكّره ويزكرني اشهى حوادث غرامنا منذ بدأ هذا الغرام
يتغلغل في قلوبنا الصغيرين كما ، تتغلغل العطور في اكام الورود .
فلم نترك في دفائن الحافظة شاردة من شوارد الحب دون ان نعيدها
الى الحياة الفاظاً تختلج في اللسان ، وانباضاً تنتفض في الجنان .

.

العودة الى باريس

شعر اميل بالعرج في اول خطوة تمكّن ان يخطوها في غرفته .
فطلب في الحال نقله الى باريس ، لعله يرى فيها نطاسياً ماهراً يعيد ساقه الى
سابق حالها . فاستجيب طلبه وأذن لي ايضاً بمرافقته والبقاء بجانبه .

كان يوماً صافياً الاديم يوم سرنا في سيارات الصليب الاحمر الى
مدينة النور . او بالاحرى الى مدينة الظلام والنور . حيث كان الظلام
الحالك يحشم فوقها ويخيم عليها طوال سنّ الحرب . فلا مشاعل تتلأأ
في ساحاتها وشوارعها ، الا مشاعل الفكر الفرنسي الملهب بسعير الحرية
والتحرر . ولا اضواء تتسرب من مشارف انديتها ، ونوافذ بيوتها ، الا
اضواء الذهن البشري المتوقد بانوار العلم والثقافة .

فكانت باريس حالكّة في الجسد نيرة في الروح .

فنزلنا غب وصولنا اليها ، في احد مصحاتها المخصّصة للجيش . وهي
بناية قديمة الطراز في منظرها الخارجي ، مستحدثة الهندسة في بعض
اقسامها الداخلية . تحوطها حديقة مكتظة بالشجر الباسق ، وموشاة
بطرائف الورد والرياحين .

ظل اميل طيلة مكوثنا في باريس يعرض نفسه لمشاهير الاطباء .
لعل معجزة من معجزات الطب تحلّ عليه ، فتشفيه من العرج . فلم يؤتته

الطب هذه المعجزة . فتسرّب اليأس الى قلبه . فقال لي مرة : ألم يكفني خسران يميني حتى بُليت فوقها بالعرج . ألم اكن في طليعة الشباب حسناً ، وفي مقدمتهم حيوية ، فأمسيت في مؤخرتهم ؟ فأجبتة : لم تنزل في نظر مواطنيك في طليعة شبابهم ، وفي عين حبيبتيك في طليعة طلائعهم . فالعرج لا يؤثر في جمال الروح ، ولا يحد من حيويتها وطموحها . وفقدان اليمين ، لا يقلل من حصافة العقل ، ومكارم الخلق . فانت روح وعقل وخلق ، لا كتل من لحم ، وقطع من عظام .

فقال : سأظل بعينك جميلاً وقوياً ما دمتَ تنظرين اليّ بعين الحب لا بعين الجسد . فعين الحب تستخرج من الدمامة جمالاً ومن العاهة كمالاً . لقد غمرته بكل ما في من موارد العطف والحب حتى جعلته يعود الى مرحه ، ناسياً محنة عرجه وفقدان يمينه .

وكنّا في شباب كل نهار مشرق الوجه ، نؤم حديقة المصح ، ونجلس ساعة في حر الشمس ، متربعين على الاعشاب النابتة حول واحات الورد والقرنفل . فنستحم بكوثر النور ، ونظهر انفاسنا باظهر العطور . ثم نتنقل الى الظل ، فنستلقي على الارض ، تحت بواسق الاشجار ، منصتين الى تغاريد طيرها ، وحفيف امات اغصانها المشرقة بولائدها الضاحكة في وجه الشمس .

في هذه الحديقة طالما كنّا نستعرض حياتنا . فنتحدث عن ماضينا الحافل بذكرياتنا المطوية ، ونتيمّن في مستقبلنا الطافح باملنا المنشود . وكانت اخبار الحرب وذكرياتها ، اشأم الاخبار واورجع الذكريات التي كنّا نتبادلها .

فلن أنسى ما حييت ، كيف تقلص وجه اميل وتشنّجت اعصابه
وانكمشت روحه ، وعندما بدأ يحدثني عن الحرب ، وعما تنتج من وخيم
العواقب التي تبدل من اوضاع النفس ، وتقتل فيها كل عطف انساني
وحنان بشري : قال :

منذ البدء بلي الجنس البشري بدهاء الحرب — هذا الداء المتأصل في
جذور الاحياء ، لم يزل حتى الان مجبول الدواء . عجزت الموهبة الانسانية
عن شفائه ، على الرغم مما انزل عليها من وحي الاديان والشرائع . وهو
يزداد في تقدم العلم استفحالاً وفي انتشار الحضارة اضطراباً .

فوحشية الحروب البدائية القائمة على الظفر والناب ، وادوات
الصوان واقواس النشاب . لا تعدّ فظاعتها جزءاً من الف جزء . اذا
قيست بوحشية الحرب الحاضرة المسلحة باحدث معدات العلم . كان
العلم الذي اكتسبه الانسان في خلال العصور ، لم يكن في الواقع الا
توغلاً في جحيم التوحش ، لا تدرجاً في سلم التحضر .

فالانسان في غمرة الحرب ، يفقد شعوره كإنسان ، مهما تكن الانسانية
مجسمة فيه ، ويمسي حيواناً لا كالحوان الذي يستكن عن الافتراس بعد
الشبع ، فهو لا يستكن عن الفتك ما دان له الفتك ، ولا يشبع من
الافتراس وفي مقدوره الافتراس .

لقد بلوت نفسيتي ونفسيات المتحاربين ، فرايتها تتحجر في احتدام
المعارك ، وتفقد كل شعور وعطف ، حتى يبدو فيها ارق الناس شعوراً بلا
شعور ، واعظمهم قلباً بلا قلب . فيتحول المرء بكليته الى آلة مسيرة من آلات
التدمير والقتل . لا يحمل في جوفه غير قلب من نار ، ونفسية من جحيم .

لقد خضت المعارك الضارية في شمالي افريقيا وجنوبي ايطاليا ، وانا على رأس فرقة من فرق الدبابات ، كنت في غضونها اشبه ببركان هائج يقذف اللحم يمينا وشمالا ، ممعنا في الهدم و«القتل» والدوس ، دون مبالاة في تقويض المنازل الآهلة بالعجائز والاطفال . او في قتل المحاربين وغير المحاربين . او في وطء الجرحى والمحشرجين .

فلم اشعر وانا غائص في بحر من النجيع ، الا بازدياد التعطش للدم ، حتى انني كنت كلما ترا كمت الجثث امامي ، وتفاقت آهات الجرحى من حولي ، واشتد تساقط القنابل على دبابتي ، ازداد استبسالا في النضال واستسدادا في القتل واستعدادا لمواصلة الكفاح من اجل النصر .

فكنت عند تأزم العراك ، لا يهمني ان الوي العنان لدبابتي بلا وازع على صدور الجرحى وفوق الاشلاء واقحاف الجمجم . كأنني الويها على كسبان من الرمل ، لا على رجال مثلي من لحم ودم .

ففي وطيس المعامع لا يشعر المحارب بقلب يشفق ، او ضمير يبكى . او وجدان يعنف .

اما اليوم فكلمنا لاحت في خاطري احوال المواقع ، تزهق فيها الوف الارواح متساقطة وهي في مطلع ربيعها ، تساقط اوراق الخريف ، يحز في الالم ، وارتاع كلما تخيلتها مخضبة تنتفض بدمائها . وتتملكني الرعدة كلما تمثلت جرائم القتل التي اقترفتها بنفسي في حومة الوغى . مع اني كنت مثل كل المحاربين اقبل واحسب القتل في ميدان الحرب بطولة لاجريمة ومجدا لا عارا . وما الحرب في الواقع الاجرمة الجرائم ، لأنها وليدة الاطماع ، سوغها دماغ بشري محنون لا دماغ موزون .

ان لسانى لعاجز حقاً عن وصف ما شاهدته من ضروب الالهوال
والفضائع، منذ موقعة العلمين في مصر، الى مواقع شمالي افريقيا وايطاليا.
فاوسع اللغات بجالا، لا تقوى بمفرداتها على التعبير عن مدى تلك الالهوال،
وارحب الناس خيالاً، لا يبلغ بتصوراته آفاق تلك الفضائع.

في ضواحي الشغلالتونسي بيزرت، خضت معركة بالسلاح الابيض.
لا تزال صلصلة حرايبها المخضبة بالدم تتجلجل في اذني وتترأى في عيني،
وعويل صرعاها وحشر جثهم، يتجاوب صداهما في نفسي، ويتزايد يوماً فيوماً
فازداد مرارة والمأ.

نازلت جنود المحور وانا احمل حربة في يميني وخنجرأ في شمالي،
متلاحماً صدرأ بصدر وساعداً بساعد.

فكنت تارة أفر من بينهم قافزاً قفزات النمر وطوراً أكر عليهم
كرور الاسد طاعناً طعنات الموت

صرعت ما لا يقل عن عشرين نفساً في تلك الموقعة القصيرة الاجل.
بينهم جندي ايطالي في غرة الفتوة. هاجمني بحربة ملوثة بدم الرفاق.
فشار ثأري عليه، وبادرته بطحنة، ثم سدّدت نحوه الاخرى وانا اسمعه يتوسل
الي قائلاً: ارحمني انا وحيد ارملة وأب لطفلين في الاقطة. فلم اكن
ساعتئذ بشرياً يرحم. فقضيت عليه وهو يستغيثني بقلب مقروح وصوت
مجروح. ويستعطفني بدمه المتفجر وطرفه الساهي المتحجر.

لم تدم مجزرة الحراب الا قليلا، غير انها كانت تزخر بالضحايا. فاكرهنا
العدو فيها على التراجع، تاركاً في ارجائها بعض اعتدته وقتلاه. ولما
تم لنا النصر اخذت ابحت مع الرفاق، وعن وقع قتيلا او جريحاً من

جنودنا . فقادني البحث الى جثة الايطالي الذي نشدني الرحمة والعفو في ساعةٍ يفقد فيها اوفر الناس رحمة وعفواً ، كل شعورٍ بالرحمة والعفو .
فألفيت جثمانه ممدداً تحت جذع شجرةٍ يتصبب منه الدم . وهو لا يزال يحلق بعينه المتفتحتين الجامدتين كأنه ما برح حياً يستغيثني .
فهزرتة فلم يتنفس ، وجسست نبضه فلم ينبض ، فتحققت وفاته . غير انني خشيته ميتاً من مجرد التطلع في عينيه المشرئبتين الي ، ولم اختشه قط وهو حي . فابتعدت عنه وانا انخيل امه العجوز واقفة بجانبه ترهقني بشدة عويلها ، وتقذفني بسهام لعنتها . وحوله صغيراه يدبان على صدره وهما يسبحان بدمه ، ويسدان جوعها بتلقف نجيعه .

هذا مشهد من مئات المشاهد الفاجعة التي لمستها بنفسي في المعامع .
ناهيك عن مشهد المدن والقرى التي درستها الحرب على بكرة ايها .
وابادت آلاف المزارع والاطيان وقضت فيها على كل نبت وعلى كل حياة .
في مدينة كسينو الايطالية استعرت نار المعارك الضارية في قلب الساحات والشوارع ، وفي باحات الكنائس وداخل المخادع والاديار ،
وبين ركام المنازل المتداعية ، وخفايا اقبعتها ومخابي ، دهاليزها .

كان النصر في خلالها يتراوح بيننا وبين الاعداء . فكشنا عدة اشهر نتصارع صراعاً عنيفاً ، ونتقارع بين كرهٍ وفر ، وهجوم وتراجع . فدخلنا المدينة عنوةً مراراً على اجساد الضحايا ، وتركناها مكرهين مراراً على تلك الاجساد . ولم نثبت فيها الا بعد ان تقوضت بكاملها ولم يبق فيها حجر على حجر .

ان انس لا انس اول مرة دخلنا اليها تحت وابل رشاش المدافع .

وازي الطائرات، وهزيم قنابلها . فلم نكد نمنع في احيائها مستروحين
النصر، حتى فوجئنا بجنود المحور ينسأون علينا بحرايهم من مخابي .
البيوت المهدامة ومن بين انقاضها ، كما تنسل الضواري من اوجارها
والافاعي من اجحارها .

وكانت ساعة ويل وثبور . اختلط فيها الحابل بالنابل ، حتى اننا لم نعد
نفدري كيف نوجه ضرباتنا ، ونتوقى الوثبات الواثبة علينا من مختلف
المكامن . فأحاط بنا العدو من كل جانب ، يزخ علينا بالقنابل زخ البرد ،
ويشعل فتائل الالغام فتتفجر من حولنا تفجر البراكين وتحصد جنودنا
حصداً .

وكنّا كلما لوينا على مكان نتقي به الموت ، نداهم بكمين من
فرق المحور ينقض علينا بحرايه فنقابله بالمثل متخذين من جثث الرفاق
الذين صرعوا على غرة متاريس نتلقى بها طعنات المهاجمين ، ثم نستدر بهم
على الاثر بطعناتنا ، فلم ندع مجالاً للقول :
قتلوا اخاك وثأره لم يقتل

فامسينا في تلك الساعة الرهيبة نحن وأعدائنا اكلب من الذئاب
ننهش بعضنا بالحراب لا بالانياب ، نهشاً متواصلاً ، ونتلاحم بأحد الخناجر
وأعضاها تلاحم جنون مطبق لا هوادة فيه بغير فناء أحد الفريقين .
فزرعنا الارض جثثاً ورويناها دماً ولم نكف ولم نتورع عن
مواصلة الطعن والضرب .

رجال استفحل الشر بيننا وبينهم الى اقصى حدوده ، ولم نرهم قبل
الواقعة ولم يرونا . ولم نعرفهم ولم يعرفونا ، ولا تأثر لهم علينا ، وليس لنا عليهم

ثأر، سوى انهم من جنود المحور ونحن من جنود الحلفاء .
كدنا نتفانى على شفار الحراب، ونحن نكافح مستقتلين في اراقة دمائنا
وابادة بعضنا بعضاً . دون ان يحمل احد منا لاحد حقداً سابقاً . غير ان
سوداء الحرب اطبقت على آدمغتنا، وهي فوق سوداء الاحقاد . وجنون
الحراب المغموسة بالدم اجهز عليها . وهو فوق كل جنون .
لم نفكر ونحن في شرّة الطعان الا بالتسابق على تسديد الضربات
القاضية على كل منا . دون ان نتساءل : لماذا انتلعب بأرواحنا كل هذا
التلاعب ! ونتاجذف بها على رؤوس الاسنة كل هذا التقاذف .
من قادنا الى الموت ؟ وزج بنا في جحيم هذه المهالك ؟ أليست فكرة
المدى الحيوي المرتكزة على الجشع والاستثمار اضرمت نار الحرب واودت
بنا وبملايين الخلق الى الهلاك والدمار ؟
فئة مصابة يجنون الاطماع والكبرياء قدحت زناد الشر فقذفت العالم
بجحيمه . فتناحر وتذابح، وخرّب ودمّر، وحرّق وفطّع، ولم يبق ولم
يذر دون ان يفطن بانه مسخر للتذابح، او ان يستشعر بانه مسير الى الفناء .
فالى متى يظل الناس كالقطعان ينقادون انقياداً اعمى الى المجازر ؟
نجوت من تلك المجزرة ولا أدري كيف نجوت . ولا كيف تسنى
لي العود الى خنادقنا . غير اني خسرت فيها رفاقاً من اشجع الرفاق، ومن
اصفاهم خلقاً، وأصلبهم عوداً . بينهم شاب كان لي اوفى رفيق واحب
صديق . كان يجاني يكافح الاعداء كفاح الاسود . فسقط صريعاً امامي وهو
يستنجدني . فلبّيته في الحال . وادركت طاعنه بضربة أودت بحياته .
وتقلّبت عليّ الخصوم، فتواريت من امامهم، دون ان اتمكن من انقاذ

هذا الرفيق الذي كنت اعزّه كنفي .

خرجت من هذه الحرب قاتلاً مقتولاً . قاتلاً ارواحاً ازهقتها بيدي ، واحمل عبء اجرامها في عنقي . ومقتولاً همماً وكدّاً على خيرة الرفاق الذين قضوا نحبهم في مختلف الميادين .

وظل اميل يردّد على مسمعي « انا قاتل ومقتول » حتى خنقته العبرات ، وشلت لسانه وطأة الانفعالات النفسية التي استأثرت بصغريه ، وضيقته عليه مجاري التنفس .

فتوقف مكرهاً عن مواصلة حديثه ، وسرد أوجع ذكرياته .

اما انا فبادرت في الحال اعلّله باطيب الآمال والاماني ، واذكره بكل ما تصبو اليه نفسه ، لأبعده عن التفكير في مآسي الحرب .

و كنت كلما جاء على ذكرها امامي ، استغرق في حديث الحب ، وفي وصف اختلاج الربيع المشرق الذي يرمز كله الى الحب . فاشغله بالتأمل في حصص البراعم ، وتنور الكنائس ، وتنفس الاماليد الخضر ، وتراقصها على هينمة النسيم ورفرة الاجنحة ، وتواجهها على اضواء الشمس ، ومبارق خيوطها الملونة المبعثرة بين حنايا الاغصان وخلايا الاوراق ، والمتلاثلة على صفحات المياه وعلى قطراتها الجاثمة حول مبااسم الزهر ومنابت العشب . لماذا لا يفتّر ثغرنا كما افتّر ثغر الربيع ونبتسم كما ينبتسم الزهر ونضحك كما تضحك الشمس ، ونزقزق كما تزقزق العصفير ؟

لماذا لا نتحرّر من تحمل اعباء الهموم والمآسي كما يتحرّر الربيع من كل لفح ونفح ؟ فهو زاهٍ زاهر لا يحمل وزر اعاصير الشتاء ، ولا هم لواعج الصيف ، ولا سموم الخريف .

أليس من الحكمة ان نعيش ليومنا كما يعيش الربيع ليومه . فنسدل
حجباً كثيفة على ماضيها المثقل بالخطوب . ونكل أمر غدنا الى الله
نستلهمه الخير مستسلمين .

بمثل هذه الاحاديث كنت اسري عنه بعض الشيء . وكانت
اخبار الانتصارات المتوالية التي كان يحرزها جيشنا الحليف ، تساعدني
ايضاً على اخماد ثورة نفسه وتخفيف لوعة آلامها .

سقوط فيينا وبرلين وتوقيع الهدنة

لم يفتأ اميل يتقصّى اخبار الحرب بشغف متزايد. فالجرائد اليومية كانت شغله الشاغل في صباحه ومساءه. والمذيع كان اليقه الدائم يهرع اليه في غالب الأوقات، ويقلّب عقربه بين مختلف العواصم والمدن، بغية الاطلاع على كل شاردة وواردة من جديد الاخبار والحوادث. فكان يُفاجأ كل يوم بانتصار جديد ينعش قلبه... الجيش الاحمر يتوغل في شرقي المانيا ويكتسح مدنها اكتساحاً هائلاً. والحلفاء يهاجمونها من الغرب ويحطّمون جيشها امام نهر الرين تحطياً فظيماً.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان سنة ١٩٤٥ اعلن الروس سقوط فيينا عاصمة النمسا ودخول جيوشهم المظفرة اليها. ثم بدأوا بهجومهم الحاسم على برلين في ١٦ منه، بينما كان الجيش الحليف تتوالى انتصاراته على الجبهة الغربية بسرعة مذهلة. وانتحر هتلر في ٣٠ نيسان، وسقطت برلين باجمعها في ٢ ايار. ثم انتهت كل مقاومة في ايطاليا وشمالي النمسا، وفي جنوبي المانيا وشماليها ايضاً.

هذه الانتصارات الخاطفة اثلجت صدر اميل، وجعلته يشعر بنشوة لم يشعر بمثلها خلال سنوات الحرب. لأنه كان يعتبر أنها ستؤدي حتماً الى وقف القتال ونجاة العالم من أروع وأفظع مجزرة في تاريخه.

وهكذا كان . فقد وقعت الهدنة بين الحلفاء والمانيا في الساعة الثانية من صباح الاثنين الواقع في ٧ ايار سنة ١٩٤٥ في مدينة ريمس الفرنسية . فاستسلم الريخ الجبار بدون قيد ولا شرط . وعاد السلام والرجاء الى بني البشر .

كانت باريس طوال شهر نيسان في عرس دائم . تستقبل نصراً اثر نصر ، وتقيم احتفالاً تلو احتفال . لم نسمع فيها غير اجراس تقرع ، واهازيج تشق عنان السماء . كل ما فيها كان يترنج بشراً وجوراً . السّاحات والشوارع ، والمسارح والملاهي والمنازل ، كلها كانت تعج بالعازين والراقصين ، وتتلألأ بساطع الانوار ومختلف الزينات والاعلام المنتصبة على شرفاتها وابراجها .

وكان اعظم ايامها يوم الهدنة - يوم القت النازية سلاحها واستسلمت جيوشها استسلاماً تاماً لجيوش الحلفاء

فتكشفت فيها الوجوه المقنعة بالسواد ، والنفوس المكبلة بأغلال الحرب . فأشرقت كلها اشراق الشمس ، وتلألأت بالالوان الزاهية تلألؤ الربيع . وعادت باريس مدينة النور ترفل بمطارف البهجة ولألاً النور .

الى لبنان

منذ خمدت نار الحرب بدأنا نتهيأ للسفر الى لبنان. لأن اميل كان في قمة من قمه يحلم بدفن يمينه ، لترقد هائثة تحت سماءه الصافية مكفنة بترابه المضمخ بأريج الأرز. فتم له ما اراد في منتصف تموز حيث أذن لنا بمقعدين في طائرة من طائرات الجيش الفرنسي المتوجهة شطر الجزائر فيبيروت . فطربنا بها على بركات الله . نحمل يداً مقطوعة وبعض الالبسة .

ولم تقل الطائرة سوى اربعة ضباط غيرنا . نزل منهم واحد في ألجه ، واستمر الباقيون برفقتنا الى بيروت . وكنا جد مرتاحين طوال السفرة من عاصمة النور الى قاعدة الجبل الابيض . فلم نصطدم بالزوابع ولا بالضباب ، ولا بريح تنفج او تلفح .

ولما لاحت امامنا جبال لبنان ، وأوديته المهيبه ، وقراه الخضوضرة المبعثرة بين السفوح والتلال ، الفيت اميل يرمقها من نافذة الطائرة بشغف عظيم ، ويتطلعها تطأع فنأن مشدوه بمفاتها ، مندفع الى رسمها منكب على نقل مختلف مشاهدها وتلاوينها

اجل كان اميل يبدو بنظرته الغريبة امام تلك المشاهد كأنه فنأن حقاً ، يحدق اليها بطرف لا يمل ويتتبع جزئياتها وتفاصيلها ، ومختلف

مناظرها واوضاعها بعين لا تشبع.

غير انه كان فناً مثالياً من اولئك الصوفيين الذين يرسمون ما تستوعبه ابصارهم وبصائرهم على لوحات قلوبهم والباقيهم، لا على لوحات من الشاش او الورق. ويضفون عليها من معدن ارواحهم، اصباغاً، ومن مرهف احاسيسهم الواناً، لا اصباغاً من اصباغ المادة، ولا الواناً من الوانها.

هبطنا مطار بيروت قرب الظهيرة. وبقينا هناك بضع دقائق لا غير لأجل استلام حقائبنا والتأشير على اوراق هويتنا. ثم انتقلنا بالسيارة الى فندق سان جورج القائم على لسان صغير ممتد في البحر، يصاول امواجه بصخوره الناتئة ويقارع أنواءه بجلاميد من الاسمنت المقدسة حوله، على جوانب الماء.

ومنذ بلغنا الفندق، وقفنا قليلاً على شرفته المطلّة على البحر الابيض المتوسط، وعلى جزء من المدينة، وبعض انحاء الساحل والجبل. فأخذ اميل يملّي انظاره بمشاهدها الخلابة مقبلاً طرفه في تلك الربوع الممتدة امامه - في ذلك الساحل الضيق الآهل بالسكان الذي يغسل اقدامه البحر - الى الهضبات الفساح المتماوجة بمطارف القرى والمزارع التي يغمرها الغمام - الى رؤوس القمم الشوامخ التي يلفها السحاب.

بتنا ليلة واحدة في الفندق. وفي الصباح الباكر اقلّتنا السيارة الى ارض الرب - الى قمة ظهر القضيبي الحارسة تلك الاشجار المقدسة التي لم يزلها تعاقب القرون الا صموداً على الدهر، وتدققاً في الحيوية والتجدد.

فاجتازنا شوارع بيروت المؤدية الى الطريق الساحلية الشمالية وهي طريق تحاذي البحر الى ما وراء الحدود اللبنانية. تكتنفها الرياض والحدائق وبساتين الموز والليمون ، والمنازل القروية المبعثرة على جوانبها وعلى الهضبات المحيطة بها .

وكان سائق السيارة من اولئك القرويين الجبلين ، بسيط المظهر ، متين البنيان ، يتكلم معنا بين الآونة والاخرى بلهجة يبدو فيها عنصرا القوة والصراحة متمزجين بعنصري الشمم واللين . وكان يعامنا باسماء القرى والامكنة التي كنا نعبدها .

هذا نهر بيروت — وهذه انطلياس المشهورة ببرتقالها الفاخر — وهذا نهر الكلب الواهب عاصمة لبنان اعذب نيره — وهذه اثاره القديمة والحديثة المحفورة على اخاديد صخوره الصلبة من عهد الفينيقيين الى هذا العهد — وهذا ثغر جونية الجميل — وهذه بكركي الجاثمة على تلك الربوة الشاخنة بالقصر البطركي الماروني — وهذا نهر ابراهيم — وهذا واديه الرهيب وادي الآله المتألم أدونيس . وهذه جبيل « بيبلس » المدينة الفينيقية المقدسة مدينة الكنوز الأثرية الخالدة على الدهر — وهذه شقيقتها البترون بطارفها وتالدها — وهذه شكا ومعاملها المشهورة لصنع الاسمنت .

وهذه طريق الجبل المؤدية الى الأرز . فلوينا عليها تاركين طريق الساحل التي تدغدغها نسائم الجبل والبحر ، وتتلاقى على صعيدها بعد اغتراب طويل مياه المالح ومياه الانهار والجدول ، فتتعانقان ثم تتساكنان في اكفاف الخضم .

ومضت بنا السيارة صعداً بين تلال جرداء، وقم مخضوضرة، في طريق كثيرة الالتواء والتعرج. فلم نلبث بضع دقائق حتى بلغنا هضبة منبسطة بين جوانب الجبال، تكسوها اشجار الزيتون، وتتخللها بعض القرى العامرة. فقال السائق: هذه هي الكورة الغنية بزيتونها وزيتها — هذه قصبتها بلدة اميون — وهذه كسبا — وهذه طريق الجبال الشوامخ — فشرعنا نلقها ونطويها كما تلقها جوارح الطير، وتطويها سحائب الغمام. وكنا كلما طويناها جبلاً نشاهد على اقفية رأسه ترتع اقدام جبل آخر اسمى ذروة واكثر شموخاً. فظلنا نصعد حتى بلغنا قرية حدث الجبة المطلة على غابة الارز، وعلى أروع ما خلق الله من جمال وجمال، في بلد الجمال والجلال.

وهي قائمة على رأس جبل عظيم خلفه قبل الوصول اليه ينطح السماء بمفرقيه، فاذا به موطي، اقدام جبل شاهق يبدو كأنه لاصق بالزرقاء. بروؤسه المستننة المكلمة بالأكاليل الماسية المتأوجة بألوان خيوط الشمس وازرقاق السماء.

وسرنا بعد الحدث بطريق تقرب الى الاستواء حتى مدينة المقدمين مسقط رأس جبران الخالد بفقه وأدبه. فلم نقطع ميلاً حتى قال السائق: هذا هو قصر الديان المقر الصيفي لبطريرك لبنان — يتعالى بقبابه فوق شفير مهيب من اشفار الوادي المقدس. ويحتوي على هيكل ينبض بقدسية الفن اللبناني، كما ينبض معبد سكستين في الفاتيكان بروحه الحية وباعجوبته الدينونة الخالدة.

وهذه بلدة حصرون الشامخة بدورها وحورها — وهذا هو الوادي

المقدس - وادي قاديشا الرهيب - وهذا نهره المتفجر من بطن غابة الارز - وهذا سلاله الصاخب المنافع اندفاع الزوابع الموج من علو شاهق - يزيغ البصر، الى وادٍ متناه في العمق، لا يدرك آخره الواقف على شفيره . وهذه بشري ربيبة جبران - وهذا قبره الجاثم في منسكٍ قديم في قلب هذا الجبل الزاهي بموقعه الرائع وبسنديانه القديم .

وهذه هي الطويق المؤدية الى غابة الارز والى شواهد الجبال التي تحرسها ، وترد عنها غوائل العواصف والتيارات الجارفة في فصل الشتاء . فشرعنا نجتازها مصعدين في جبل ينذر فيه الشجر، على كثرة ما فيه من مساقط الماء . الى ان بلغنا منبسطين بين الجبال تقوم على جنباته بعض الفنادق والمنازل، ويحضن في صدره الغابة التاريخية - غابة ارز الرب، وهي مسورة بجائط حجري اخى عليه الزمان، تلاصقه من الناحية الشمالية الشرقية كنيسة حديثة البناء، تقاربها ثكنة عسكرية لفرق التزلج .

فترجلنا من السيارة ووقفنا هنيهة في ساحة الثكنة المشرفة على الغابة المرتفعة قليلا عنها . فشرعنا نسرّح طرفنا فيها، مأخوذين بروعتها وسحرها . وكان اميل يدقق فيها النظر وهو مغرورق الدمع . والسائق يدلنا باصبعه على اعظم شجراتها قائلا : هذه انضر واضخم شجرة في الغابة على رغم آلاف الاعوام التي طوتها . يلف جذعها اربعة عشر رجلا - وهذه القائمة في قلب الارز متناهية الحجم ايضاً - يقال ان الشاعر الفرنسي لامرتين استظل بظلها وحفر اسمه عليها . وهناك ارزة مجوفة الجذع قديمة العهد تُعرف بارزة الناسك، اتخذها احد القساوسة له منسكاً،

وتعبد في جوفها طوال حياته ... وهناك وهناك ...

لم يسمح لنا الوقت ان نتغلغل بين تلك الاشجار التي قدسها البشر،
وخلدها سفر التكوين، فلم نتيين اسرار قوتها واسباب نموها الدائم على تعاقب
القرون. ولم نتفيا ظلالها ونستشق عن كسب عبيرها. فالى لقاء ثانٍ ان شاء الله.
عدنا الى السيارة نطلب دليلاً يرافقنا الى القمة المنتصبة فوق الغابة،
مصحوباً بمعوله ورفشه .

فجاءنا السائق بفتى فارم دون العشرين، جوري الوجه، متين الساعد،
ممشوق القد . فطلبنا منه بعض اغصان الارز، فأثانا بها. ثم ارتقينا معاً الى
تلك القمة نجتاز جبلاً اجرداً من بعض فسائل النبات . وهو مكسوء
بطبقة كثيفة من التراب، تخفي تحتها جابرة الصخور المرتكز عليها .
وتسرح في منعطفاته وحناياها قطعان من الماعز فييناها تقفز جائية رائحة
تتلقّف المرعى بين حزنه .

والفيينا الرعاة يتنقلون بين تلك الاكمت، وهم يعزفون على شباباتهم
المفعمة بالحنو والعطف، ويتناشدون « المواويل » التي كنا نسمع بعضها
يتعالى صاخباً كصفير الرياح، وبعضها ينطلق عذباً ناعماً كهينمة النسيم .
وكانت اصدااء الجبال ترددها مقطعاً مقطعاً، ومهاوي الاودية تتناقلها نغماً
نغماً، فتزيدها روعة وتغمرها حنواً .

ان تلك الاصوات والنغمات التي سمعناها ونحن نصعد في ذلك
الجل، هي اصوات ونغمات غريبة، لم تصدر من افواه الرعاة فحسب، بل
هي تزاوج اصوات الطبيعة باصوات البشر ... هي امتزاج مواويلهم
الصاخبة بمواويل رياح الجبال واصداائها. واثلاف عذيف شباباتهم الرائقة

بعزيف رائق النسيم، وحفيف الايك

تسلقنا القمة قبل ان تبلغ الشمس قبة الفلك . وهي تعلو عن سطح البحر اكثر من ثلاثة آلاف متر ، ولا يعلو عليها في لبنان الا القرنة السوداء التي لم نتمكن من بلوغها لبعدها عن الطريق المعبد ، ولوعورة مسلكها . فغادرنا السيارة بعد ان سلمنا الدليل الصندوقة الصغيرة التي تحضن يد اميل الطاهرة . فمضى بها وبمعهوله ورفشه . وخطونا وراءه نتحسس تلك الاماكن ، لتتخير موضعاً ملائماً نواريها فيه ، مشرفاً على الغابة المقدسة ، وعلى سلاسل الجبال اللبنانية المتلاحقة من مكسر الموج الى مرمى الثلج .

فانتقى اميل فرجة صغيرة في وسط القمة ما برج يغمرها الثلج لانعزالها عن مهب الرياح بسبب انخفاضها قليلاً عما حولها من الارض . وهي تطل على وجهي لبنان — على بحره الابيض وبقاعه الخصبة — وعلى سلسلتيه العظيمتين المقابلتين الغرب والمواجهة الشرق .

فاخذ الدليل يجرف عنها ركام الثلج ، ثم بدأ يحفر قبراً في تلك الارض المتحجرة مستعيناً بمعهوله ورفشه . وكان اميل يساعده بين الفينة والفينة . والسائق يهيئ له بعض الحجارة اللازمة لجوانب الرسم .

ولما انتهى كل شيء .. وضع اميل بنفسه الصندوقة في قلب الحفرة ، وغمرها « بشلوخ » الارز . ثم تناول قبضة من التراب ونثرها فوقها ، ثم حفن حفنة من الثلج ورشها عليها وهو يقول : هنا اودعت جزءاً من جسدي وقبساً من روحي ، في ارض تحضن بقايا الآباء والاجداد ، وتدرّ خيرها على بنينهم واحفادهم . فهنيئاً لهذا الجزء الذي يرقد بسلام في

اطهر بقعة في لبنان، مكنةً بارزه، ملقعةً باقدس ترابه، مسربلاً بانصع ثلجه.
وهيل الثرى على الحفرة حتى استوت بالأرض التي تجاورها. ثم
نحمرت بأكوام الثلج وُرفِع فوق جانبها الغربي شاهدٌ مصفح من الصخر
اودعه اميل هذه العبارة التي نقشها برأس جارحته في قلب الحجر.
هنا فوق مشارف الارز ترقد عين مهاجر لبناني ينتصب شاهداً علماً
خفياً مستعراً بنار الوجد والحزن — وجد المغتربين اللبنانيين وحنينهم
الدائم الى وطنهم لبنان.

.....

انجز اميل عمله، ثم انتزع منديله وملأه تراباً من جوانب الحفرة.
وقبل ان تغادرها، وقفنا حولها بضع دقائق صامتين نودعها خلاصة عطفنا،
ونطرها وابل حنوً.

.....

وانشينا الى السيارة، فهبطت بنا الى الارز — الى فندق الشفق
القائم على ذروة جبل يحمل في صدره مغارة قاديسا التي يتفجّر من
جوفها النهر الذي يحمل هذا الاسم. وهي مغارة كما قال لنا صاحب
الفندق من اعجب مغاور الكون، ومن اكثرها روعة وفتنة للنظر،
بوفرة ما فيها من اللوحات الطبيعية الحافلة باجمل التماثيل والمشاهد. وقد
ابدعتها على كرت العصور انا مل الماء لا انا مل الفنانين والمثاليين.

فلم نتمكن من مشاهدتها بسبب ضيق الوقت. لأننا لم نكد
نتناول الغداء حتى كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر. وكان
علينا ان نصل الى مطار بيروت قبل الساعة السادسة مساءً، موعد

رجوع الطائرة الى باريس .

فانحدرت بنا السيارة تنهب الارض نهباً الى المطار . فافتعدنا جبارة
الجوّ التي حلّقت بنا متوجهة شطر مدينة النور . فلم نر من بيروت غير
النزول اليسير . وقد الفيناها بموقعها الطبيعي وبمجموعها الجامع بين حضارة
الشرق وثقافة الغرب ، مدينة ساحرة على رغم ضيق شوارعها وعدم
اتساقها .

الى مدينتنا المحبوبة مونتريال

بعد بضعة ايام من وصولنا الى باريس، اقلتنا طائرة من طائرات الجيش الاميركي الى لندن، ومنها الى مدينتنا المحبوبة مونتريال. فارتبطنا فيها برباط الزواج المقدس، في حفلة بسيطة لم يحضرها غير اقرب الاهل. وها نحن ننعم الان في عشنا الزوجي بحياة هائلة مطمئنة، بعد تلك الحياة الرهيبة التي قضيناها في ميادين الحرب. لم نشاهد فيها غير تراكم الاهوال والفظائع.

لقد بدأ اميل يكتب مذكراته عن فواجع هذه الحرب وهو يأمل نشرها على الملا قريباً.

وطالما صرّح لي باعتقاده : ان رجال السياسة الذين القيت على عواتقهم مقدّرات الكون. وهم على ما هم عليه من تنازع الالهواء، وتباين الاهداف والمصالح، لا يتمكنون بمؤتمرات دولية، ولا بمحادثات عسكرية، او بتأليف جامعة امم، ان يجربوا دماء الخلق بقدر ما تحجبها اقلام المفكرين الذين خاضوا غمار الحرب، وشهدوا بنفوسهم وقائعها الهائلة الزاخرة بملايين الضحايا البشرية، وآلاف المدن والقرى المهتمة. وبلايين الاموال التي هدرت هدرًا في ساحات الوغى، من افواه الدبابات

والقائصات والمدرّعات وما شاكلها من آلات الحرب وعددها ومعدّاتها.
فلو بُذِلَ بعض هذا المال في سبيل الانعاش البشري في مختلف
حقوله العلمية والأدبية والاقتصادية، لانتصر العالم حتماً على الجهل والعوز
وعلى أخطر الأوبئة والأمراض المستعصية التي تفتك به .
ولكن وبالأسف فالعالم لا يزال مسيراً برجال السياسة والمطامع
لا برجال العلم والأدب والروح الخلاق للتحالية التقدمية الصحيحة .

انتهت في ٢٠ كانون الاول سنة ١٩٤٦

بقلم

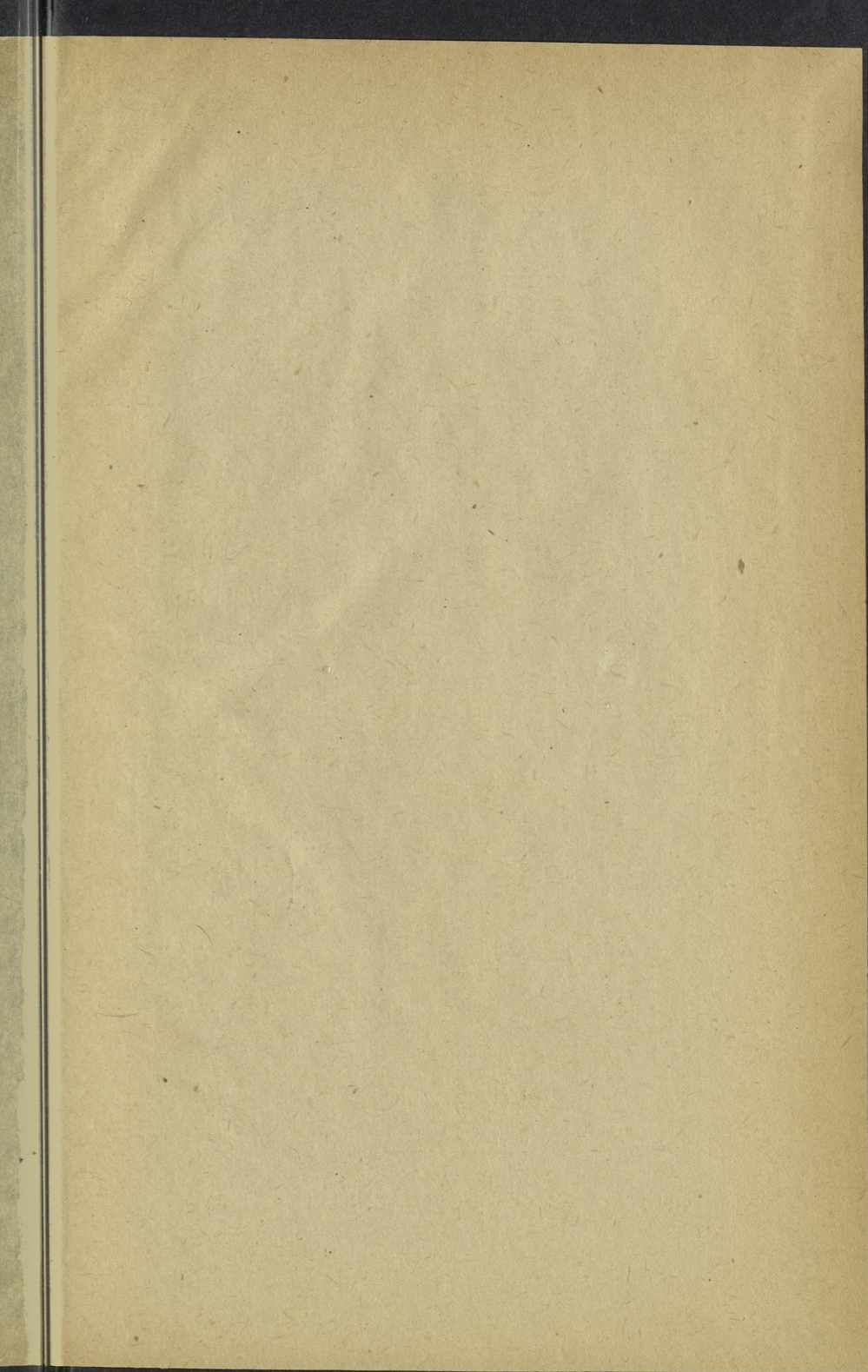
توفيق حسن ابي نادر الشرتوني

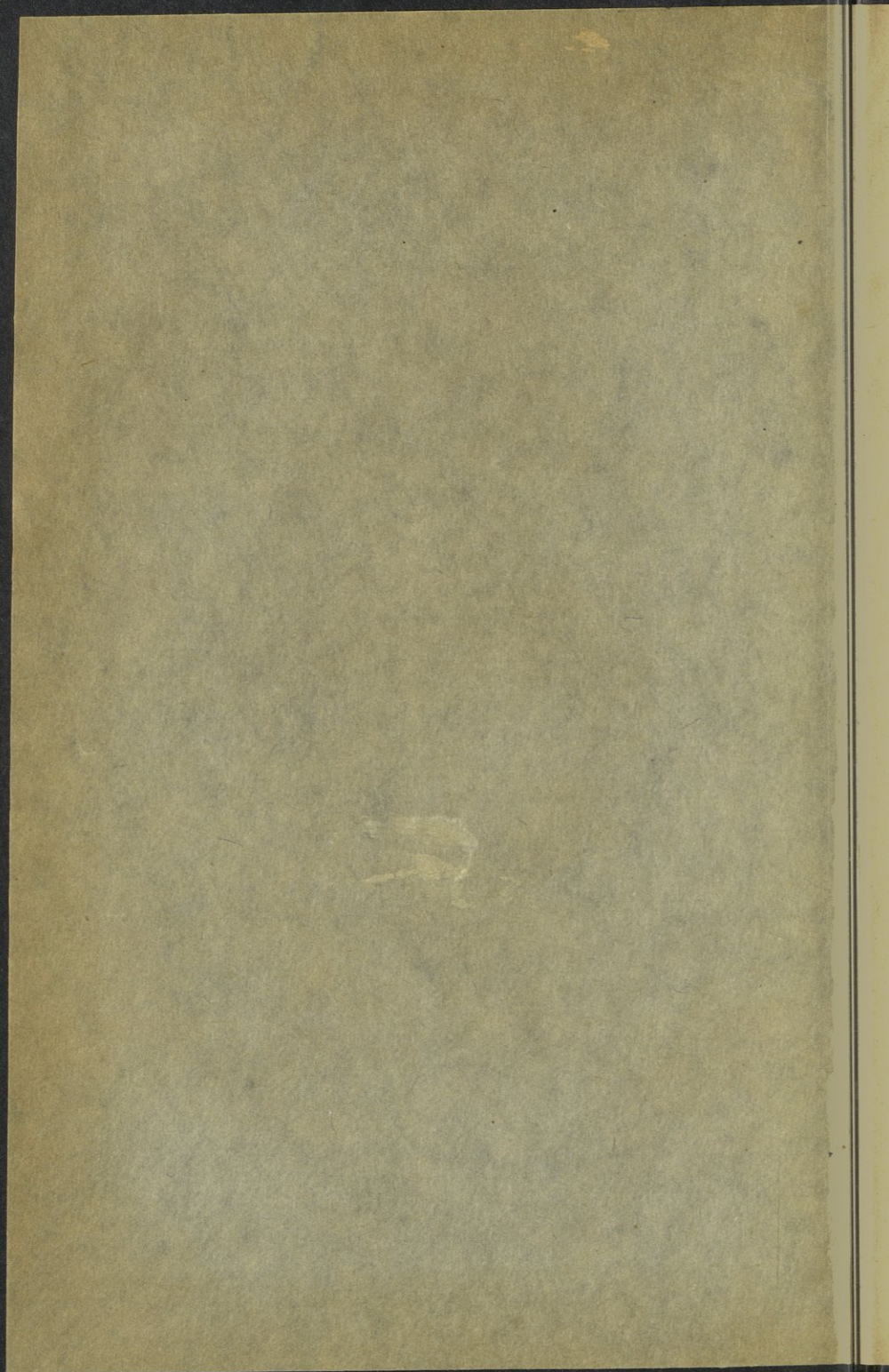
فهرست

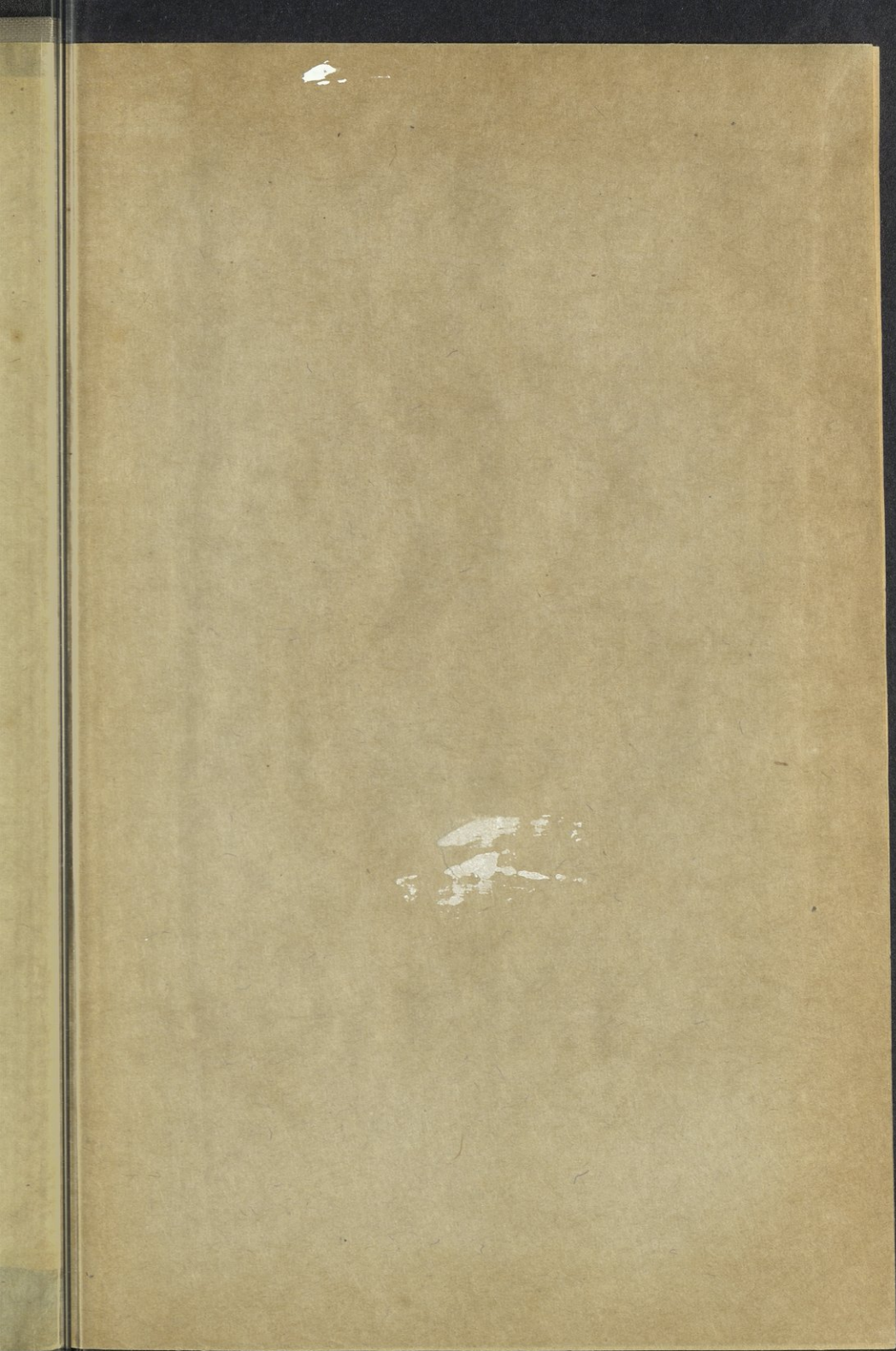
صفحة	اهداء الكتاب
٥	الوداع
١٢	في ميدان الحرب
٣٥	سقوط باريس
٣٨	عبر الاوقيانس
٤٥	في بريطانيا العظمى
٥٠	في فرنسا
٥٥	في باريس
٥٩	في جبهة الفوج
٧٥	الى كولمار
٨٨	العودة الى باريس
٩٨	سقوط فيينا و برلين وتوقيع الهدنة
١٠٠	الى لبنان
١٠٨	الى مدينتنا المحبوبة مونتريال

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

وقع بعض الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارىء اللبيب







892.73:Sh53dA:c.2

الشرتوني، توفيق، حسن

دموع الوفاء بين الإثملاء والدماء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038170

American University of Beirut



892.73

Sh53dA

c.2

General Library

892.78
Sh562dA

C.2

